يقوم عليه دليل ، فالقول بالتطور فى عالم لا أول له خرافة تعرض عنها العقول ؛ لأن ابتداء التطور يحتاج إلى شىء جديد فى العالم القديم ، وحدوث التطور بغير ابتداء تناقض لا يسوغ فى اللسان ، فضلا عن الفكر والخيال ، والقول بأن المادة تخلق العقل، كالقول بأن الحجر يخلق البيت ، وأن البيت يخلق الساكن فيه ، وأيسر من ذلك عقلا ، بل ألزم من ذلك عقلا أن يقال : إن العقل والمادة موجودان وإن أحراهما بأن يسبق الآخر ، ويخلقه هو العقل ؛ لأن المادة لا توجد ما هو أفضل منها ، وفاقد الشىء لا يعطيه) .

وبهذا ندرك الفرق بين وجود الله ووجود العباد ، فوجود الله واجب للذات ، لا يقبل الانتفاء ، فلا بداية له ولا نهاية ، أما وجود العباد فجائز يقبل الثبوت والانتفاء وله بداية ونهاية ، فهم يوجدون بعد العدم ، وينتهى وجودهم متى أراد الله .

ولهذا ، فقد جاء فى بداية البحث المفيد ، تحت عنوان :

ما يجب في حق الله وما يستحيل عليه

أن الصفات التى يجب ثبوتها لله تعالى أنواع ثلاثة :

١ – صفة نفسية : لا تتحقق الذات إلا بها ، وهى صفة الوجود .

٢ – صفات سلبية : وهى التى تنفى عن ذات اللّه ما لا يليق بها ، وهى خمس : القدم ، والبقاء ، والمخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس ، والوحدانية .

٣ – صفات المعانى : وهى الصفات الوجودية التى تثبت للذات العلية ما يليق بها من كمال ، وهى كثيرة ؛ لأن كمالات اللّه تعالى لا تتناهى ولا تُحَدُّ ، وأهم ما يجب أن تقف على أدلته منها سبعة وهى :

العلم ، والحياة ، والإرادة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .

ثم يقول : وأضداد هذه الصفات كلها من : عدم ، وحدوث، وفناء ، ومشابهة للحوادث ... الخ مستحيلة عليه تعالى .

ثم يقول بعد ذلك حول صفة الوجود كلاما منطقيا ينبغى أن يلاحظه كل مؤمن ومؤمنة ، حتى يكونا دائما مع هذا الإله العظيم الموجود ، فيقول ما خلاصته :

أن الإنسان يشعر فى أعماق نفسه بوجود إله لهذا الكون ، خالق قادر يصرفه كما يريد ، ويحكم فيه كما يشاء ، وهذا أمر تهديه إليه فطرته ، وينطق به طبعه ، من غيرحاجة إلى تعليم وإرشاد، وأنه من أجل ذلك اندفع منذ وجد يتلمس لنفسه إلها ، وراعته الظواهر الطبيعية ، فعبد منها ما رآه خليقا بمقام الألوهية ، فعبد الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والرياح وغيرها ، وظن حينا أن للبحر إلها ، وللشعر والجمال والحب آلهة ، وهكذا . واتجه كثير من الفلاسفة فى أقدم العصور إلى البحث عن مصدر الكون ، ومنشأ الوجود ، واختلفوا فى ذلك ما شاء لهم الاختلاف . هذا كله دليل على أن الإنسان مدفوع بطبعه إلى التدين ، وفى فطرته الاعتراف بوجود اللّه ، وإن اضطرب رأيه فيه . نعم قد تطغى على المرء عوامل الهوى والعناد والغواية ، فيخفى هذا الإحساس فى نفسه ، ولكنه لا يلبث أن يعاوده إذا تكشفت عنه تلك الحجب ، ورجع إلى فطرته وطبيعته ، وآية ذلك أنه إذا انتابته نائبة أو نزلت به شدة التجأ إلى اللّه وحده ، وتضرع إليه مُذْعناً له ، مُقرّاً بوجوده إقرارا لا ظل فيه لتردد، ولا أثر فيه لريبة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم

مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ... ﴾ (١) . وقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (٢).

وهذا الإحساس الفطرى دليل قوى على وجود اللّه .

وأن الكون موجود ، وأن كل ما تشاهده فيه من الكائنات يعتريه التغير ، ويتولد بعضها من بعض ، وذلك كله من قبيل الممكن الذى وجد بعد أن لم يكن ، ولابد له من مُوجد ، إذ يستحيل عقلا أن يُوجَدَ بغير سبب ، وأن يوجِدَ نفسه ؛ لأن كون الشيء سببا لنفسه باطل ، لا ستلزامه تقدم الشيء باعتباره سببا على نفسه باعتباره مسببا ، فلا بد أن يكون لهذه الممكنات جميعها موجد . وما وراء الممكن مستحيل ، وواجب ، والمستحيل لا يوجد غيره ؛ لأنه معدوم ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، فيبقى الواجب ، ويلزم أن يكون لهذه الكائنات مُوجِد واجب الوجود لذاته لا لعارض أوجده ، وذلك هو اللّه سبحانه وتعالى . وذلك دليل يدركه من له أدنى حظ من التفكير ، وقد ساقه عربى فى كلمة له فقال : (بعرة تدل على بعير وأقدام تدل على مسير ، فأرض ذات

---

(١) الروم : من الآية ٣٣ .

(٢) الإسراء : من الآية ٦٧ .

فـجـاج ، وسـمـاء ذات أبراج ، أفـلا يدل ذلك على الحكيم الخبير؟!) .

وأن هذا الكون وما نرى فيه من مظاهر الإبداع والإتقان يشهد بوجود إله يخلق بقدر، ويبدع بعلم وحكمة،فالأَجْرام السماوية فى كثرتها وعظمتها وحركتها الدائمة ، وتَبَاعُد ما بينها تسير على نظام وثيق لا يختل ، واطراد لا يتخلف ، والأرض تدور حول نفسها ، وتتحرك حول الشمس ، ويتحرك حولها القمر ، فينشأ الليل والنهار، وتتنوع الفصول ، وتختلف الأجواء ، وتتوزع الأمطار والمياه، وكل شيء مهيأ لما أُعِدَّ له : الأرض لسكنى الناس والحيوانات البرية، والماء للحيوانات المائية ، والهواء للطير ، وهكذا .

وإنك لو نظرت فى عالم الحيوان مبتدئا بالحيوانات الدنيا ومنتهيا بأرقاها لوجدت لنشأتها ونموها وتكاثرها ، نظما رائعة دقيقة، ووجدت كل جزء فيها قد خلق بقدر ، وَزُوِّد بمَا يكفل له أداء رسالته على أتم الوجوه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ

(١) سورة القمر : ٤٩

﴿فَهَدَىٰ﴾[1] .

وعلى هذا النحو من الدقة والكمال تجد النظام فى المملكة النباتية ، ففى اتساعها وتعدد أنواعها ، واختلاف أشكالها ، وألوانها، وطعومها ، وروائحها ، وخواصها ، ومنافعها ، وتسلسلها من المراتب الفطرية الدنيئة إلى أعلى المراتب وأكملها ـ فى ذلك كله ما يبعث على الدهشة ويثير الإعجاب .

وبين يديك علوم الطبيعة ، والكيمياء ، والحيوان ، والنبات تكشف لك عما أودع فى المادة من أسرار ، وما وزع على العناصر من خواص تمهد كلها لبناء هذا الكون والترقى به ، وأن ما كشف العلماء من ذلك ، وما انتفعوا به فى ميادين البحث والاختراع لا يزال ـ على كثرته ـ قطرة من خضم هذا الكون الحافل بالأسرار والقُوى .

كل هذا لا يمكن أن يكون مصدره المادة ذاتها ؛ لأن المادة جامدة عمياء ، ليس لها عقل ، تستطيع أن تميز به هذه الأوضاع

---

(١) سورة الأعلى : ٢ و ٣ .

الدقيقة ، أو تهتدى إلى ذلك النسق الكامل ، أو تحتفظ بهذه النواميس المحكمة على مرّ الدهور ، دون خلل أو اضطراب . ثم إنها مسخرة تؤدى وظائف لا يمكن أن تتخلى عنها، والإنسان ـ وهو جزء منها فى أحسن صورة وأكمل طور ، وهو الذى يسخرها ، ويتحكم فيها ـ لا يقدر أن يُكْسِبَهَا خاصة جديدة ، فهى عن خلق ذلك فى نفسها أعجز . ولا يعقل أن يكون هذا الإبداع كله قد وُجِدَ اتفاقا ، وعن طريق المصادفة ؛ لأن المصادفة لا يمكن أن تكون أساسا لنظام مستمر محكم ، لا يعتوره نقص ولا يشوبه اضطراب كهذا النظام ، وإذَنْ فلابد أن تكون هناك قوة تسيطر على هذا العالم ، وتمنحه الوجود والإحكام ، تلك القوة هى الله رب العالمين.

والقرآن الكريم كثيرا ما يتجه فى إثبات وجوده تعالى هذا الاتجاه ، فيوجه النظر إلى ما فى الكون من عجائب وبدائع ، فيقول تبارك وتعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(١) ،

(١) الذاريات : ٢٠ و٢١ .

ويقول : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1] إلى آخر تلك الآيات البينات التى ينبغى أن نقف عليها ونعيش بتدبر فى معانيها وما تحتوى عليه من أبعادٍ ، حتى نصل من خلالها إلى معرفة الخالق سبحانه وتعالى ، والإيمان بوجوده .

ونستطيع بعد هذا الخير الذى وقفنا عليه أن نتساءل مع هذا الرجل المؤمن الذى يقول [2] .

مَنْ عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يعلمِ

وهدى المسافر فى الدجى بالأنجُم ؟

---

(١) البقرة : ١٦٤ .

(٢) وهو الأستاذ أحمد عبد الهادى ، كما جاء فى مجلة الوعى الإسلامى ، العدد ١٤٠ سنة ١٩٨٦م تحت عنوان « هو الله الذى لا اله الا هو » صفحة ٨١ .

وأعـــد للطـفـل الضعـيف غذاءه

لبنـــا خفـيف الهضـم حلو المطعـمِ ؟

اللـــه عـلَّـمَ عبـــــده وأعـــزه

وهدى الغـريب وأطـعم الطفل العَمِي

* * *

من أيقـظ الأطـيار إبـأن السَّـــحَـرْ

تشـــدو وتسعى للغـــذاء بـلا حَذَرْ

وتعود للأعشـاش مـالئـــة الحـــشـا

لتزق أفـراخًـا صـــغارا تنـــتـظرْ ؟

اللـــه أيقظهـــا وأطـلق شَـــدْوَهـَا

وأطارها للعـيـش من فوق الـشـجرْ

* * *

مَنْ أخرج الشـجر العـظيم مـن الـــنواهْ

وأقله الثـمر الجـميـل كـما تـراهْ ؟

وأعـــده للنـــاس حـلـــوا طيبـــــا

شتى المذاق وقد سُقِى نَفْـسَ المـيـاهْ ؟

اللـــــه أخـــرجـــه وحَـمَّلَه الجـنَى

وسقاه ماء واحدا يُجـرِى الحيـــــــاهْ

* * *

مَنْ ذا الـذى رفـع الســماء بلا عَمَدْ ؟

ومَنْ الذى يعطيك ـ إنْ تَرْجُ ـ المـدَدْ ؟

ومَنْ الذى يـــدرى بســـرك إن خفـــا

ويقيك سيئ ما بصـــدرك من كَمَدْ ؟

اللـــه رافعـها السـماء ، وعـــالـــم

بالـسر . وهـو البارئ الفرد الصـمدْ

* * *

مَنْ ذا الذى ناداه من قلـب البحـــارْ

قَوْمٌ على الفُلْكِ الذى لَقِىَ الدمارْ ؟

ريح وأمـــواج ترامـت فـــوقهـــم
فأتى بهم للبـر ثـم إلى الـــديـار ؟
اللـــه نجـــاهم وأذهـب روعـهـم
ووقاهـمُ اللـــه الـهـلاك والانـدثـار

* * *

مَنْ ذا الذى نظم الكواكب فى الفلَكْ
وترى النـهار إذا مضـى يـأتى الْحَـلَكْ
بأدق ما كان النظـــام ودونمـــا
خلل ، ولا تلقى الكواكب تشتبك ؟
اللـــه نَاظِمهُـــا بغـير مساعِد
وهو المليك ، أَجَلّْ ، ومالك مَنْ مَلَكْ

* * *

مَنْ أخرج الإنسان من مـاء مَهِينْ
ونشاه أطـــواراً على مـــرّ السنـــينْ

وأجـاد صـــورتـه وأبـدع خَلْـقَـه

وهداه بالتـفـــكير للحـــق المبـينْ ؟

اللـــه أبدعه وأكـمـــل خَلْـقـه

وحـبَاه عـقلا يستـضـيءُ به اليقينْ

* * *

نعم ، إنه اللّه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

٢ – القدم : ومعناه أنه لا ابتداء لوجوده تعالى ، لقوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (١)

إذ معناه أن كل شيء غير اللّه مخلوق للّه ، فلا يجوز أن يكون غيره خالقا له ؛ لأنه لو كان مخلوقا لكان محتاجا إلى غيره ، كيف وهو ذو الغنى المطلق ، وفقر كل شيء إليه محقق ؟

وقد ثبت فيما مر بك أنه واجب الوجود ، والواجب لا يقبل الانتفاء، ووجـوده ذاتـى لا لعـارض منـحه إياه ، بـل إنه أعـطى

---

(١) الزمر : الآية ٦٢ .

الممكنات وجودَهَا .

ثم إنه لو لم يكن قديما لكان حادثا ، ولو كان حادثا ، لاحتاج إلى محدث ، ومحدثه إلى محدث وهكذا ، وذلك يؤدى بك إلى فرض سلسلة من آلهة تتصف بالحدوث ، والعجز ، والافتقار إلى إله قديم موجود لذاته ، يصدر عنه كل وجود سواه ، وذلك هو (اللّه) قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ.. ﴾[1] .

٣ – البقاء : ومعناه أنه، لا انتهاء لوجوده سبحانه وتعالى ، وأنه لا انتهاء يلحقه عدم ، لقوله تبارك وتعالى : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿.. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ... ﴾[3] . ولأن من ثبت قدمه استحال عدمه . فهو الأزلى القديم بلا بداية والأبدى الباقى بلا نهاية : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

---

(١) الحديد : من الآية ٣.

(٢) الرحمن : ٢٧ .

(٣) القصص : من الآية ٨٨ .

عَلِيمٌ ﴾ [1] .

فـهـــو القـــديم وحـــده والبـــاقى

فى القيـــد نحن وهْـــوَ فى الإطـــلاق

أى أنه سبحانه وتعالى ـــ كما جاء فى شرح هذا البيت ـ هو القديم لا غيره .. والقدم صفة سلبية ، وهو انتفاء العدم السابق على الوجود ، وهو من خواص الألوهية الحقة ، ودليله ـ كما عرفنا قبل ـ أنه تعالى لولم يكن قديما لكان حادثا ، ولو كان حادثا لاحتاج إلى محدث ، فيلزم الدور أو التسلسل ، وكلاهما محال ، وهو أيضـــا الباقى وحـده سبحانه وتعالى ، والبقاء صفة سلبية أيضا، وهو انتفاء العدم اللاحق للوجود ، والمراد البقاء بالذات المختص بالألوهية ، ودليله أن الله تعالى لو لم يكن باقيا لكان يفنى وينعدم ، وكل قابل للفناء والانعدام حادث واللّه تعالى قديم وليس بحادث فهو باق . وأما البقاء بالغير كبقاء أهل الجنة والنار فليس هو من صفات اللّه تعالى ، لتنزه اللّه تعالى عنه ؛ لأنه افتقار إلى الغير ، وهو محال على اللّه تعالى .

---

(١) الحـــديد : ٣ .

٤ – مخالفته تعالى للحوادث : ومعناها عدم مماثلته لشيء منها لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال ، لقوله تعالى : ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (١) .

ولأنه لو ماثل شيئا منها لكان حادثا مثلها . والحدوث مستحيل في حق الخالق عز وجل .

ومعناها كذلك ـ بصورة أوضح ـ أنه سبحانه وتعالى لا يماثل الممكنات في شيء ما ، فليس جوهرا ، ولا جسما ، ولا عرضا ، ولا متحركا ، ولا ساكنا، ولا يوصف تعالى بالكِبَرِ ولا بالصغَرِ ، ولا بالفَوْقِيَّة ، ولا بالتحتية ، ولا بالحلول في الأمكنة ، ولا بالاتحاد مع غيره ، ولا بالاتصال به ، ولا بالانفصال عنه ، ولا بالزيادة ولا بالنقصان ، ولا بالتأثر بالمؤثرات النفسية التي تنتج اللذة والألم ، والفرح والحزن ، والغضب والرضا ، ولا بغير ذلك من أوصاف الحوادث . ليس جوهراً ؛ لأن الجوهر ـ (وهو الذي يشغل حيزا من الفراغ ، ولا يقبل التجزئة) ـ حال في محل ، وموجود في حيز ، فهو في حاجة إلى المكان والحيز وإلى من يخلقهما له ، وهو

---

(١) الشورى : من الآية ١١ .

بذلك داخل فى دائرة الممكنات ، فلا يكون واجب الوجود .

وليس جسما ؛ لأن الجسم ـ (وهو المتحيز المركب من أجزاء) ـ يحتاج إلى وجود كل جزء من أجزائه قبل وجود جملته ، فلا يكون قديما لتقدم أجزائه فى الوجود عليه ، كما يحتاج إلى من يؤلف بين هذه الأجزاء ، ومعنى هذا أنه قابل للعدم ، وذلك ينافى ما ذكر من أن وجود الواجب إنما هو لذاته لا لشىء خارج عنه ، وأنه أَزَلِىٌّ ، أَبَدِىٌّ ، لا أول لوجوده ، ولا آخر لبقائه. وليس عَرَضاً ؛ لأن العَرَض ـ (وهو ما لا يستغنى بذاته ، وإنما يحتاج إلى شىء يقوم به ، كالأزمنة ، والأمكنة ، والجهات والأوصاف) ـ يتغير ويتبدل ويتناوبه الوجود والعدم تبعا لوجود ما يقوم به أو انعدامه ، فيكون حادثا ولا يكون واجب الوجود .

على أنه تعالى لو شابه الحوادث ، لكان مثلها ، ولجاز عليه ما يجوز عليها من الحدوث والتغير والفناء ؛ لأن ما يجوز على أحد المثلين يجوز على الآخر ، وإذنْ فأين مقام الألوهية ، وما يجب لَها

من الكمال ؟ وما الذى يميز الإله عن خلقه حينئذ ؟ ولم يختص بالألوهية ولا تكون الحوادث المماثلة له آلهة مثله ؟. إنه لابد أن يكون مُخَالفاً لها ، وأن يكون ذا شأن آخر يتفق مع جلال الربوبية ، وعظمة الذات العليا . قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(١) وقال: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (٢). وربما اعترضتك آيات فى القرآن فيها ما يوهم تشبيه الله بخلقه ، نحو : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ... ﴾ (٣) ، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾(٤) ، ﴿... وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ...﴾ (٥) ، ﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ...﴾(٦) ، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ ..﴾(٧)

---

(١) الشورى ، من الآية : ١١

(٢) سورة الأخلاص : ٣ و٤ .

(٣) النحل : من الآية ٥٠ .

(٤) سورة طه : ٥ .

(٥) الزمر : من الآية ٦٧ .

(٦) فاطر : من الآية ١٠ .

(٧) الفجر : من الآية ٢٢.

* * وهذه كلها يجب تأويلها بما يليق بمقام اللّه ، ويسيغه مفهوم اللغة، فتُحْمَلُ الفوقية فى الآية على معنى التمكن من الملك والسلطان . واليمين على معنى القدرة . وصعود الكلم إليه على معنى ارتضائه له ، ومجيء اللّه على مجيء أمره ، وهكذا .

وإنما دعا إلى هذه التعبيرات أن ألفاظ اللغة المحدودة لا تستطيع أن تصور لعقل الإنسان القاصر الحقائق الإلهية إلا فى صورة يألفها ، ويقوى على إدراكها .

ونحب قبل أن نفرغ من الكلام عن هذه الصفة ـ أن نبين لك أن الإنسان قد يقف من ذات الله حائراً يتلمس أن يضع لها صورة ذهنية ، ولكن ذلك خطأ وضلال ؛ لأنه لاشيء من الصور الذهنية إلا وهو منتزع من المدركات الخارجية أو مؤلف منها، وإن باينها ، وأبعده الخيال عنها ، وهذه المدرَكات كلها حادثة فكيف تتألف منها صورة اللّه الواجب الوجود ، المتعالى عن الشبيه والنظير ؟ إن هذا غير ممكن ؛ ولهذا قيل : (كل ماخطر ببالك فاللّه بخلاف ذلك) .

على أن للعقل جهودا إذا جاوزها عجز وضل ، وخبط فى غير فهم ولا إدراك . وهناك ظواهر كثيرة تقع تحت حس الإنسان ، وتتداخل فى مدركاته ، وهو مع ذلك يعجز عن الوصول إلى كنهها،فالنفس ، والروح ، والعقل ، والضوء ، والكهرباء ، والأثير، قريبة منه كل القرب ، ولكنه لا يستطيع معرفة حقيقتها ، وهو لذلك يكتفى بالبحث فى آثارها وأعراضها ، وما يمكن أن يفيده منها ، ويَدَعُ ـ مضطرا ـ محاولةَ اكتناهها ، وما ذاك إلا لأن إدراكه ينتهى عند غاية محدودة ، فالتفكير فيما وراء هذه الغاية إضاعة للوقت ، وصرف للقوى فيما خلقت غير مستعدة له . (وإذا كان هذا حال العقل الإنسانى مع ما يساويه فى الوجود أو ينحط عنه ، بل كذلك شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر ـ فما يكون من أمره بالنسبة إلى ذلك الوجود الأعلى ؟!) .

وماذا يعنى المرء من رسم صورة للإله ؟ وما فائدة ذلك له ؟ عليه أن يفكر فى آثار صنع الله ؛ ليهتدى إلى منافع خلقه ، ويشبع رغبته فى البحث ، ويكون تفكيره مجديا ، وقال ﷺ : (**تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا**) .

* * وأنا شخصيا مع هذا الرأى الذى يريح النفس ويجعل المؤمن بعيدا عن أسباب الزيغ والضلال ... وإن كنت أرى أن أوقف الأخ القارئ على الفتـــوى التى أجاب فيها الشيخ سليم البشرى رحمه اللّه تعالى عن كل تلك التساؤلات الهامة فقال [1]:

إلى حضرة الفاضل الشيخ أحمد على بدر ببلصفورة : قد أرسلتم بتاريخ ٢٢ محرم سنة ١٣٢٥هـ مكتوبا مصحوبا بسؤال عن حكم من يعتقد ثبوت الجهة له تعالى ، فحررنا لكم الجواب الآتى وفيه الكفاية لمن اتبع الحق وأنصف: اعلم أن مذهب الفرقة الناجية وما عليه أجمع السنيون أن اللّه تعالى منزه عن مشابهة الحوادث ، مخالف لها فى جميع سمات الحدوث ، ومن ذلك تنزهه عن الجهة والمكان ، كما دلت على ذلك البراهين القطعية ، فإن كونه فى جهة يستلزم قدم الجهة أو المكان ، وهما من العالم ـ وهو ما سوى الله تعالى ـ وقد قام البرهان القاطع على حدوث كل ما سوى الله تعالى بإجماع من أثبت الجهة ومن نفاها ، ولأن المتمكن يستحيل وجود ذاته بدون المكان ، مع أن المكان يمكن

---

(١) كما جاء فى هامش (الدين الخالص) ج ١ ص ٣٣

وجوده بدون المتمكن لجواز الخلاء ، فيلزم إمكان الواجب ووجوب الممكن ، وكلاهما باطل ، ولأنه لو تحيز لكان جوهرا ، لاستحالة كونه عرضا ، ولو كان جوهرا فإما أن ينقسم وإما ألاَّ ينقسم وكلاهما باطل فإن غير المنقسم هو الجزء الذى لا يتجزأ ، وهو أحقر الأشياء ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ والمنقسم جسم وهو مركب ، والتركيب ينافى الوجوب الذاتى فيكون المركب ممكنا يحتاج إلى علة مؤثرة ، وقد ثبت بالبرهان القاطع أنه تعالى واجب الوجود لذاته ، غنى عن كل ما سواه ، مفتقر إليه كل ما عداه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1]،هذا وقد خذل الله أقواما أغواهم الشيطان وأذلهم ، اتبعوا أهواءهم ، وتمسكوا بما لا يجدى ، فاعتقدوا ثبوت الجهة .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، واتفقوا على أنها جهة فوق إلا أنهم افترقوا : (فمنهم) من اعتقد أنه جسم مماس للسطح الأعلى من العرش، وبه قال الكرامية واليهود، وهؤلاء لا نزاع فى كفرهم (ومنهم) من أثبت الجهة مع التنزيه وأن كونه فيها ليس ككون الأجسام، وهؤلاء ضلال فساق فى عقيدتهم وإطلاقهم على الله ما لم يأذن به الشارع

(١) الشورى : جزء من الآية ١١ .

ولا مِرْيَةَ أنَّ فاسق العقيدة أقبح وأشنع من فاسق الجارحة بكثير ، سيما من كان داعية أو مُقْتَدًى به (وممن نُسِبَ) إليه القول بالجهة من المتأخرين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحنبلى ، وقد انتدب بعض تلامذته للذَّبِّ عنه وتبرئته مما نسب إليه ، وساق له عبارات أوضح معناها وأبان غلط الناس فى فهم مراده ، واستشهد بعبارات أخرى صريحة فى دفع التهمة عنه ، وأنه لم يخرج عما عليه الإجماع ، وذلك هو المظنون بالرجل لجلالة قدره ورسوخ قدمه . وما تمسك به المخالفون القائلون بالجهة أمور واهية وهمية لا تصلح أدلة عقلية ولا نقلية ، قد أبطلها العلماء بما لا مزيد عليه ، وما تمسكوا به ظواهر آيات وأحاديث موهمة كقوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (١)

وقوله : ﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ... ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ ءَأَمِنتُم

---

(١) سورة طه : ٥ .

(٢) فاطر : من الآية ١٠ .

(٣) المعارج : من الآية ٤ .

مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ .. ﴾[1] ، وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ..﴾[2] . وكحديث :

(**إنه تعالى ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة فيقول ، هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟**) وقوله للجارية الخرساء : (أين اللّه ؟ فأشارت : فى السماء) حيث سأل بأين التى للمكان ، ولم يُنْكِرْ عليها الإشارةَ إلى السماء بل قال : (إنها مؤمنة) (ومثل) هذه ـ يجاب عنها بأنها ظواهر ظنية لا تعارض الأدلة القطعية اليقينية الدالة على انتفاء المكان والجهة . فيجب تأويلها وحملها على محامل صحيحة لا تأباها الدلائل والنصوص الشرعية إما تأويلا إجماليا بلا تعيين للمراد منها كما هو مذهب السلف ، وإما تأويلا تفصيليا بتعيين محاملها وما يراد منها كما هو مذهب الخلف كقولهم : إن الاستواء بمعنى الاستيلاء ، كما فى قول القائل :

---

(١) سورة الملك : من الآية ١٦ .

(٢) الأنعام : من الآية ٦١ .

قد استوى بِشْـــرٌ عـلى العـــراق

من غيـر ســـيف ودم مـُهـــراق

وصعود الكلم الطيب إليه قَبـولُه إياه ورضاه به ؛ لأن الكلم عَرَضٌ يستحيل صعوده . وقوله : مَنْ فى السماء ، أى : أَمْرُه وسلطانه أو مَلَكُ من ملائكته مُوَكَّل بالعذاب . وعروجُ الملائكة والروح إليه صعودُهم إلى مكان يُتَقَرَّبُ إليه فيه ، وقوله : فوق عباده ، أى : بالقدرة والغلبة ، فإن كل من قهر غيره وغلبه فهو فوقه ، أى أنه أقدر منه وأغلب ، ونزوله إلى السماء محمول على لطفه ورحمته وعدم المعاملة بما يستدعيه علو رتبته وعظم شأنه على سبيل التمثيل، وخص الليل لأنه مظنة للخلوة والخضوع وحضور القلب ، وسؤاله للجارية (بأين) استكشاف لما يظن به اعتقاده من أينية المعبود كما يعتقده الوثنيون ، فلما أشارت إلى السماء فهم أنها أرادت خالق السماء ، فاستبان أنها ليست وثنية وحكم بإيمانها ، وقد بسط العلماء فى مطولاتهم تأويل كل ما ورد من أمثال ذلك عملا بالقطعى وحملا للظَّنِّىِّ عليه ، فجزاهم اللّه عن الدين وأهله خير الجزاء .

ومن العجيب أن يَدَعَ مسلم قول جماعة المسلمين وأئمتهم ويتمشدق بتُرَّهات المبتدعين وضلالتهم ، أَمَا سمع قولَ اللّه تعالى : ﴿... وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ (١) ، فليتب إلى اللّه تعالى من تلطخ بشيء من هذه القاذورات ، ولا يتبع خطوات الشيطان؛ فإنه يأمره بالفحشاء والمنكر ، ولا يحملنه العناد على التمادى والإصرار عليه ؛ فإن الرجوع إلى الصواب عين الصواب ، والتمادى على الباطل يفضى إلى أشد العذاب ﴿ ... مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (٢)

نسأل اللّه أن يهدينا جميعا سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . أهـ.

* * وقد أورد إمام أهل السنة (الشيخ محمود خطاب السبكى) رحمه اللّه تعالى فى الجزء الأول من الدين الخالص ،

---

(١) النساء : من الآية ١١٥ .

(٢) الكهف : من الآية ١٧ .

فى باب (المتشابه) أقوالا هامة تتعلق بهذا الموضوع ، قال فيها بعد أن قال :

(وأما) السلف والخلف فإنهم مجمعون على ثبوت صفات اللّه تعالى الواردة فى الكتاب العزيز والسنة المحمدية .

وإنما خلافهم فى : تفويض معنى المتشابه : وهو مذهب السلف . وفى بيان معناه : وهو مذهب الخلف :

* قال الإمام السلفى الجليل ابن كثير فى تفسيره ما نصه : أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ قلنا فى هذا المقام مقالات كثيرة جدا ليس هنا موضع بسطها ، وإنما نسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح : مالك ، والأوزاعى ، والثورى ، والليث بن سعد ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا . وهو إمرارها كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل . والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن اللّه تعالى ، فإن اللّه لا يشبهه شىء من خلقه و« **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** » ، بل الأمر كما قاله الأئمة : منهم نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى قال:

من شبه اللّه بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف اللّه به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف اللّه به نفسه ولا رسوله تشبيه (فمن أثبت) للّه تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذى يليق بجلال اللّه تعالى (ونفى) عنه تعالى النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى . أ هـ .

* وقال العلامة إسماعيل حقى فى تفسيره روح البيان : من قال إن اللّه فى السماء إن أراد به المكان كفر ، وإن أراد به الحكاية عما جاء فى ظاهر الأخبار لا يكفر ؛ لأنها مؤولة ، والأذهان السليمة والعقول المستقيمة لا تفهم بحسب السليقة من مثل هذه التشبيهات إلا عين التنزيه . أ هـ .

(ولذا) لم يتعرض السلف لتأويل المتشابهات لكون العقول إذ ذاك كانت سليمة لا تفهم من المتشابه إلا تنزيه اللّه عز وجل عن صفات الحوادث. (وتعرض) الخلف للتأويل لفساد عقول كثير من أهل زمانهم ففهموا من ظاهر المتشابهات أن اللّه سبحانه وتعالى جسم يحل فى العرش أو السماء أو الجهة .

* (قال) فى روح البيان : يقال لمن قال : إن لله تعالى مكانا: أين كان قبل خلق هذه العوالم ؟ ألم يكن له وجود متحقق؟ فإن قالوا : لا ، فقد كفروا ، وإن قالوا بالحلول والانتقال ، فكذلك ؛ لأن الواجب لا يقارن الحادث إلا بالتأثير والفيض وظهور كمالاته ، لكن لا من حيث إنه حادث مطلقا بل من حيث إن وجوده مستفاض منه ، فافهم . أ هـ .

* (وقال) أيضا : من يثبت له تعالى مكانا فهو من المجسمة . ومنهم جهلة المتصوفة القائلون بأنه تعالى فى كل مكان ، ومن يليهم من العلماء الزائغين عن الحق الخارجين عن طريق العقل والنقل والكشف . أهـ .

* (والعلماء) الزائغون عن الحق هم الذين ذمهم الله تعالى بقوله : ﴿... فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ ...﴾ (١) ، وأى فتنة أفظع من كونهم كفروا بالله تعالى لاعتقادهم أن الله تعالى جالس على العرش ، أو له مكان ، أو حل فى جهة ، زعما

(١) آل عمران : من الآية ٧ .

منهم أن ظاهر الآيات والأحاديث يدل على ذلك وكفر بسببهم كثير من جهلة العوام ضعفاء العقول كما شاع وذاع فى كثير من البقاع ، فلا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم .

* وقال البيضاوى فى تفسير قوله تعالى : « **ثم استوى على العرش** » : استوى أمره أو استولى ، وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة للّه بلا كيف ، والمعنى أن له تعالى استواء على العرش على الوجه الذى عناه منزها عن الاستقرار والتمكن .أ هـ .

* وقال العلامة الخطيب : اللّه تعالى لا يتصف بالأماكن والجهات والحدود ؛ لأنها صفات الأجسام ، ولأنه تعالى خلق الأمكنة وهو غير متحيز ، وكان فى أزله قبل خلق المكان والزمان ولا مكان له ولا زمان وهو الآن على ما عليه كان . أ هـ .

* وقال العارف الصاوى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ** ... ﴾ [1] : المراد بالفوقية القهر لا الجهة ؛ لأنها مستحيلة عليه تعالى .أ هـ .

---

(١) النحل : من الآية ٥٠ .

* وقال الإمام القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ... ﴾ [1] : المراد بها توقيره وتنزيهه تعالى عن السفل والتحت ووصفه بالعلو والعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود ؛ لأنه خلق الأمكنة وهوغير محتاج إليها ، وكان فى أزله قبل خلق المكان والزمان ، ولا زمان ولا مكان ، وهو الآن على ما عليه كان . أ هـ .

* وقال أبو حيان فى تفسيره : معتقد أهل الحق أن اللّه تعالى ليس بجسم ولا جارحة له ولا يشبه بشيء من خلقه ولا يكيف ولا يتحيز ولا تحله الحوادث . أ هـ .

وقال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ... ﴾ [2] : إنما ذهب أهل العلم إلى الخروج عن ظاهر (فى السموات وفى الأرض) لما قام عليه العقل من استحالة حلول اللّه تعالى فى الأماكن ومماسة الأجرام ومحاذاته لها وتحيزه فى جهة . أ هـ .

---

(١) الملك : من الاية ١٦ .

(٢) الأنعام : من الآية ٣ .

* وقال الإمام النيسابورى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ : يقطع بكونه تعالى متعاليا عن المكان والجهة .أهـ .

* وقال عماد الدين الكندى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ : حلول الله تعالى فى الأماكن مستحيل ، وكذلك مماسة الأجرام أو محاذاته لها ، أو تحيزه فى جهة ؛ لامتناع جواز التغير عليه تبارك وتعالى ، واستقرت القواعد على أن الله تبارك وتعالى لا يجوز عليه الجهة ولا الظرفية أهـ . بتصرف . (وقال) فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ : الفوقية تمثيل للقهر لا للقاهر . وما أغبى الحشوية وأجمدهم حيث التزموا فوقية الجهة والجسمية فيمن يستحيل عليه ذلك . فما بالحشوية إلا مكايدة المعقول ومكابرة المنقول . أهـ .

* وقال الحافظ بن حجر فى شرح صحيح البخارى فى تفسير الاستواء المشار إليه فى قول الله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ : قالت المجسمة معناه الاستقرار ، وهو قول فاسد ؛ لأن

الاستقرار من صفات الأجسام، ويلزم منه الحلول والتناهى ، وهو محال فى حق اللّه تعالى ولائق بالمخلوقات . أهـ.

* وقال العلامة النووى فى شرح صحيح مسلم : مذهب السلف فى أحاديث الصفات أنه يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد لها معنى يليق بجلال اللّه تعالى مع اعتقادنا الجازم أن اللّه ليس كمثله شىء وأنه منزه عن التجسم والانتقال والتحيز فى جهة وعن سائر صفات المخلوق .أ هـ .

* * والخلاصة التى أريد أن ننتهى إليها ونكتفى بها ـــ حول هذا الموضوع ـ ما جاء فى هامش (الفتاوى الأمينية) ، حيث يقول ، حول (بيان مذهب السلف والخلف فى المتشابهات) :

وقد قال اللّه تعالى فى سورة تبارك آية ١٦ :

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ ، هذه الآية نظيرها قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ الأنعام ، آية ٦٥ . وكذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ

﴿ٱلْأَرْضَ﴾ القصص . صدر آية : ٨١ .

وهنا سؤال : هل اللّه سبحانه فى السماء ؟ : احتج المشبهة بهذه الآية على إثبات المكان للّه ، وهى قوله تعالى : « أأمنتم من فى السماء ؟ » .

والجواب : أن هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها باتفاق المسلمين؛ لأن كونه سبحانه فى السماء يقتضى كون السماء محيطا به من جميع الجوانب فيكون سبحانه أصغر من السماء ، والسماء أصغر من العرش بكثير ، بل وأصغر من الكرسى، الذى وسع السموات والأرض ، فيلزم أن يكون اللّه شيئا صغيرا بالنسبة إلى العرش ، وذلك محال ، ولأنه تعالى قال : « ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ » الرعد صدر آية: ١٦ ، وقال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ الأنعام آية : ٣ فهل يعقل أن تكون الذات الواحدة فى مكانين فى آن واحد ؟ .

إذن يجب صرف هذه الآية وأمثالها عن ظاهرها . قال فى فتح الرحمن : هذا من المتشابه الذى استأثر اللّه بعلمه ونؤمن به ولا نتعرض لمعناه ونكل العلم فيه إلى الله .

وفى فتح البارى : اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التى جاءت بها الثقات عن رسول اللّه ﷺ فى صفة الرب ـ سبحانه وتعالى ـ من غير تشبيه ولا تفسير . وأخرج البيهقى بسند صحيح عن سفيان بن عيينة : كل ما وصف اللّه تعالى به نفسه فى كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه . وهذه طريقة الشافعى وأحمد بن حنبل .

وعلماء المالكية : اختلفوا ، فرأى بعضهم التأويل ، ورأى البعض الانكفاف عن التأويل وتفويض معانيها إلى اللّه . والأسلم اتباع السلف لأنهم لا يؤولون . والرسول ﷺ يقول : (آمنوا **بمتشابهه واعملوا بمحكمه**) انظر ص ٢٠٣ جـ ٤ النهاية لابن الأثير ، ولم يقل : (أولوه) ، فهو فى السماء على المعنى الذى أراده سبحانه مع كمال التنزيه ، ويجوز أن تكون الظرفية تجوزا فى التعبير مع ما عليه العرب من أنه فى السماء وهو متعال عن المكان ، ومثله حديث الجارية .

وأما رفع الأيدى إلى السماء فى الدعاء فلكونها محل البركات وقبلة الدعاء ، كما أن الكعبة قبلة الصلاة .

والخلف يقولون : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ عذابه ، كما أن السماء موضع نزول الرحمة ، والمراد من كونه فى السموات وفى الأرض نفاذ أمره وقدرته وجريان مشيئته فى السموات وفى الأرض . ويجوز أن يكون المراد من قوله : « من فى السماء » هو الملك الموكل بالعذاب ، والمعنى أن يخسف بهم الأرض بإذن الله ، أو المراد الملائكة الموكلون بتدبير هذا العالم بإذن الله ، فهو سبحانه ليس فى جهة من الجهات ؛ لأن ذلك من صفات الأجسام.

ومن الآيات المتشابهات أيضا قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ، قد تعلقت المشبهة أيضا بهذه الآية ، فى أن معبودهم جالس على العرش ، وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه:

(أولها) : أنه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان ، ولما خلق الخلق لم يحتج إلى مكان بل كان غنيا عنه .

و(ثانيـها) : أن الجالس على العرش لابد وأن يكون الجزء الحاصل منه فى يمين العرش غير الحاصل فى يسار العرش ، فيكون فى نفسه مؤلفا مركبا، وكل ما كان كذلك احتاج إلى المؤلف والمركب ، وذلك محال .

و(ثالثها) : أن الجالس على العرش إما أن يكون متمكنا من الانتقال والحركة أو لا يمكنه ذلك ، فإن كان الأول فقد صار محل الحركة والسكون ، فيكون محدثا لا محالة ، وإن كان الثانى كان كالمربوط ، بل كالزمن بل أسوأ حالا منه ، فإن الزمن إذا شاء الحركة فى رأسه وحدقته أمكنه ذلك وهو غير ممكن على معبودهم.

و (رابعها) : أن قوله تعالى :﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾يتناول نفى المساواة من جميع الوجوه ، فلو كان جالسا لوجد من يماثله فى الجلوس ، فحينئذ يبطل معنى الآية .

و (خامسها) : قوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [1]. فإذا كانوا حاملين للعرش والعرش مكان معبودهم، فيلزم أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم وذلك غير معقول ؛ لأن الخالق هو الذى يحفظ المخلوق،

(١) الحاقة : ١٧.

أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله .

و (سادسها) : أن العالم كرة فالجهة التى هى فوق بالنسبة إلينا هى تحت بالنسبة إلى ساكن ذلك الجانب الآخر من الأرض وبالعكس ، فلو كان المعبود مختصا بجهة فتلك الجهة وإن كانت فوقًا لبعض الناس لكنها تحت بالنسبة لبعض آخرين . وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال المعبود تحت جميع الأشياء .

و (سابعها) : أن الأمة أجمعت على أن قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ من المحكمات لا من المتشابهات ، فلو كان مختصا بالمكان لكان الجانب الذى منه يلى ما على يمينه غير الجانب الذى منه يلى ما على يساره ، فيكون مركبا منقسما ، فلا يكون أحدا فى الحقيقة فيبطل قوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

* * وعلى هذا : فلا يصح أن نشتغل بالتأويل ، بل نقطع بأن الله منزه عن المكان والجهة ، ونترك تأويل الآيات .

فالسلف فى آيات الصفات وأحاديث الصفات يفوضون بعد التنزيه ، والخلف يؤولون خوفا من التشبيه ، فكلهم متفقون على التنزيه ، وإنما الفرق بينهما أن علماء الخلف يعنون المعنى المراد ،

فيقولون مثلا فى قوله تعالى : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ : المراد باليد القدرة ، والسلف يفوضون بعد التنزيه فيقولون : إننا ننزهه تعالى عن الجارحة ولا نعين شيئا خاصا من المعانى التنزيهية كما يفعل علماء الخلف ، وأما أولئك المتفيهقون الذين يعينون ويشبهون، فهم مجسمون مشبهون يبرأ منهم السلف والخلف جميعا .

وليت شعرى : أيثبت هؤلاء الجاهلون كل ما ورد من تلك الظواهر فيثبتون له تعالى (يدا) بمقتضى قوله تعالى : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (١). أم (يدين) بمقتضى قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (٢). أم (أيديا) عديدة بمقتضى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ (٣). و يثبتون له (عينا) بمقتضى قوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ (٤). ، أم (أعينا) بمقتضى قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٥). إلى غير ذلك وهو كثير . ويقولون : إن

(١) الفتح : من الآية ١٠ .
(٢) المائدة : من الآية ٦٤ .
(٣) يس : آية ٧١.
(٤) طه : من الآية ٣٩.
(٥) القمر : من الآية ١٤ .

الله (فى السماء) بمقتضى قوله : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أم (على العرش) بمقتضى قوله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ ، أم (فى الآفاق) بمقتضى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ الحديد آية : ٤ . و يثبتون له (أصابع) بمقتضى قوله ﷺ : (**إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله**) رواه مسلم والترمذى عن أنس . أو يثبتون له (يمينا) من نوع آخر لقوله ﷺ (**الحجر** [1] : **يمين الله تعالى**) رواه الديلمى فى مسند الفردوس عن عكرمة موقوفا .

وليت شعرى أيضا : هل يثبتون له ما أخبر به فى قوله تعالى : ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ [2] . فيقولون بحلول الله مكان السراب فى الأرض ! وما أخبر به من أنه : ﴿**أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ ، وقوله فى شأن المحتضر : ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ** ﴾ [3] . وقوله ﷺ : فى الصحيح فى حق الجائع والمريض : (**أما إنك لو أطعمته لوجدتنى عنده ، ولو**

---

(١) أى الحجر الأسود .

(٢) النور – من الآية : ٣٩ .

(٣) الواقعة : آية ٨٥ .

عُدْتَهُ لوجدتنى عنده) رواه مسلم عن أبى هريرة ، وحديث لقاء اللّه لعبده على باب المسجد وتبشبشه له كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا رجع إليهم . انظر ص٨٠ ج ١ـ النهاية لابن الأثير .

تم نسأل : عمن فى السماء ؟ أى سماء هى ؟ هل الأولى أم الثانية ... أم السابعة الخ والآية تقول : ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ﴾ (١)، ثم نزوله كل ليلة حينما يحل الثلث الأخير من الليل إلى سماء الدنيا ، مع أن اختلاف المواقيت يجعل ثلث الليل الأخير يحل كل لحظة من بلد من البلاد، فكيف نتصور معبودهم نازلا صاعدا مدة الأربع والعشرين ساعة كلها ؛ لأن ما هو ليل هنا قد يكون نهاراً هناك؟ .

وكيف نجمع عقلا بين الظرفية فى السماء ، والعلو على العرش ، ووجوده أمام المصلى : ﴿ **وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ...**﴾ إلخ، ورحم اللّه الغزالى القائل : سبحان من استوى على العرش ، كما أخبر على الوجه الذى أراد ، وبالمعنى الذى قال استواء منزها عن المماسة والاستمرار وعن التمكن والحلول والانتقال ، وليس العرش يحمله ولا الكرسى

---

(١) الطلاق : من الآية ١٢ .

يسنده ، بل العرش وحملته ، والكرسى وعظمته كل محمول بلطف قدرته ، ومقهور فى قبضته .

وماذا يضيرنا لو قلنا : إننا نؤمن بالله وبوجوده المتيقن المؤكد وبهيمنته على الخلق ، ولكننا لا ندرى أين هو ؟

وهل لو سألنى سائل عن رئيس من الرؤساء ، أموجود هو ؟ فقلت نعم ، هو موجود يأمر وينهى ويصرف الأمور ، فإذا سألنى وأين هو ؟ فقلت له : لا أدرى ، غير أنى أوقن أنه موجود ـ أيكون جوابى هذا حكما بعدم وجود الرئيس المسئول عنه ؟ اللهم إنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

وبعد هذا ، فأى لون يثبتون له ، وأى طول وأى عرض يصفونه به ؟ يقول الإمام الغزالى : (من أخذ علمه من العبارات والألفاظ ضل ضلالا بعيدا ، ومن رجع إلى العقل استقام أمره وصلح دينه) .

ولست أدرى : هل عرف هؤلاء حقيقة الروح التى يحيون بها حتى يتعرضوا للكلام فيمن ليس كمثله شىء .. سبحانه .

قال إمام الحرمين : إن الله خلق العرش من ذرة ، وهو بالنسبة إلى قدرته أقل من ذرة ، فكيف يكون مستقره ؟

* وقال ذو النون المصرى ـ رضى الله عنه ـ وقد سئل عن التوحيد : التوحيد أن نعلم أن قدرة الله فى الأشياء بلا مزاج ، وصنيعه للأشياء بلاعلاج، وعلة كل شيء صنعه ،ولا علة لصنعه، وليس فى السموات العلا ولا فى الأرضين السفلى مدبر غير الله تعالى ، وكل ما تصور فى وهمك فالله تعالى بخلاف ذلك .

* وقال يحيى الرازى رضى الله عنه وقد قيل له : أخبرنا عن الله تعالى ، فقال : إنه واحد . فقيل : كيف هو ؟ فقال : ملك قادر . فقيل : أين هو ؟ فقال : بالمرصاد . فقال السائل : لم أسألك عن هذا ؟ فقال : ما كان غير هذا فهو صفة المخلوق ، فأما صفته فما أخبرت عنه .

* وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : من زعم أن الله سبحانه وتعالى فى شيء أو من شيء أو على شيء ، فقد أشرك بالله ، إذ لو كان على شيء لكان محمولا ، ولو كان فى شيء

لكان محصورا ، ولو كان من شيء لكان محدثا ، تعالى الله عن ذلك .

* وقال بعض العلماء لتلميذ له يمتحنه : لو قال لك أحد : أين معبودك ؟ فأى شيء تقول ؟ قال : كنت أقول : حيث لم يزل. قال : فإن قال لك : فأين كان فى الأزل فأى شيء تقول ؟ قال : أقول : حيث هو الآن ولا مكان ، فهو الآن على ما عليه كان . قال التلميذ : فارتضى الشيخ ذلك .

* * والخلاصة : أن أحاديث الصفات ليست على ظاهرها ، وأن لها تأويلات تليق بجلال الله تعالى ولا تقطع بتعيين تأويل منها، بل تكل ذلك إلى العليم الخبير ، ولكن لابد من التنزيه على كل حال [1] .

* * فلاحظ كل هذا ـ أخا الإسلام ـ حتى لا تضل أوتزل ، وحتى تكون أيضا فى نفس الوقت سليم العقيدة ..

وحسبك بعد كل هذا أن ننتفع بقول (جلال الدين

(١) راجع ٤، ٥ ، ٦، ج ٦ الفخر الرازى ، ومجلة نور الإسلام السنة الثانية ص ٢٨٢ .

السيوطى)[1] رحمه اللّه تعالى :

قـل لمـن يفهم عنـى مـا أقـول

قـصر القـول فـذا شرح يطـول

هـو سـر غامـض مـن دونـه

ضربت ـ واللـه ـ أعنـاق الفحول

أنـت لا تـعـرف إيـاك ولا

قـدر من أنت ولا كيـف الوصول

لا ، ولا تـدرى صـفات ركبـت

فيـك حارت فى خفـاياها العقول

أين مـنك الـروح فى جـوهرها

هـل تراها فترى كيـف تجـول ؟

هذه الأنفـاس هل تحصـرهـا ؟

لا ، ولا تـدرى متـى منـك تـزول

---

(١) وقد قرأت فى كتاب (إتحاف الكائنات) للإمام الشيخ محمود خطاب السبكى : أن قائل هذا هو الإمام الغزالى عليه رحمة الله ... والله أعلم

أين منك العقل والفهم إذا

غلب النوم فقل لى ياجهول ؟

أنت أكل الخبز لا تعرفه

كيف يجرى منك أم كيف تبول

فإذا كانت طواياك التى

بين جنبيك كذا فيها خلول

كيف تدرى من على العرش استوى

لا تقل كيف استوى كيف النزول

كيف تجلى الله أم كيف يرى

فلعمرى ليس ذا إلا فضول

هو لا كيف ولا أين له

وهو رب الكيف والكيف يحول

وَهْوَ فوق الفوق لا فوق له

وهو فى كل النواحى لا يزول

obeikandl.com

جـــل ذاتاً وصـــفـــاتٍ وســـــما

وتـــعالى قـدره عمـــا أقـــول

* * ولتكن عقيدتك :

عقيدة أهل السنة

التى خلاصتها : أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد اعتقاداً جـازمـا بأن اللّه تعـالى إله واحـد ، منزه عن الشـريك والمعين ، والصاحبة والولد .. موجود بذاته من غير افتتاح لوجوده ، ولا نهاية لبقائه .. مستغن عن كل ما سواه ، ومفتقر إليه كل ما عداه .. قائم بنفسه .. ليس بجوهر متحيز فيحتاج إلى مكان ، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء ، ولابجسم فيكون له الجهة والتلقاء.. مقدس عن الجـهـات والأقطار ، مرئى للمؤمنين بالقلوب فى الدنيـا وفى الآخرة بالأبصار .. استوى على العرش كـمـا قـال وعلى المعنى الذى أراد ، له الآخرة والأولى ، لا يئوده حـفظ المخلوقات ، وهو موجود بعلمه فى جميع الجهات ، مقدس عن القبل والْبَعْدِ ، فإن ذلك من صفات الزمان الذى أبدعه ، فهو سبحانه لا يحده زمان ولا يقله مكان .. بل كـان ولا مكان ولا زمان ، وهوالآن على ما

عليه كان ، السموات والأرض ومن فيهن جميعا منه ، خلق اللوح والقلم وأجراه كاتبا بعلمه فى خلقه ، فلا تتحرك ذرة إلا إليه وعنه، أوجد الكل من غير حاجة إليه ، ولا موجب ذلك عليه ، إلا أن علمه قد سبق ، فلذلك خلق من خلق ، لم تتعلق قدرته إلا بما أراد ، كما أنه لم يرد إلا ما علم ، وأحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ، يعلم السر وأخفى ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) . علم الأشياء قبل وجودها ، ثم أوجدها على حد ما علمها ، مريد لجميع الكائنات فى الأرضين والسموات ، فما فى الوجود طاعة ولا عصيان ، ولا ربح ولاخسران، ولا حياة ولاموت ولا حصول ولا فوت ، ولا متحرك ولا ساكن . ولا ظاهر ولا باطن ، إلا وهو مراد للحق جل وعلا ، ولا معقب لحكمه ، ولا رآد لأمره ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء، أخرج العالم فريقين ، وأوجد لهم منزلتين ، فقال : هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى ، لم يتصرف فى ملك غيره فلا ينسب إليه الظلم والحيف ، ولا يتوجه إليه من الغير سؤال بِلِمَ أو

(١) الملك : ١٤.

كيف ، فهو سبحانه كما قال فى كتابه المكنون : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[1] .

فإن رأيت من لم يخضع لهذا الاعتقاد فاصرف النظر عنهم ، وقل : ﴿... فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2] يسمع دبيب النملة على الصخرة الصماء ، ويبصر السواد فى الظلماء ، متكلم لا عن صمت تقدم ، ولا سكوت متوهم ، بكلام قديم أزلى ، منزه عن الحروف والأصوات ، وعن جميع آلات النطق واللهاة ، كما أن سمعه من غير أصمخة ولا آذان ، وبصره من غير حدقة ولا أجفان ، وعلمه من غير نظر ولا برهان، وحياته من غير بخار حدث عن امتزاج الأركان .

وبالجملة .. فهو سبحانه وتعالى متصف بكل كمال ، ومنزه عن كل نقص ، إذ هو الكبير المتعال ، فلا يشبه شيئا من الحوادث، بل كل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك .

وكذلك يجب اعتقاد أن لله تعالى أنبياء ورسلا ، مبشرين ومنذرين ، وأن سيدنا محمدا رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين ،

---

(١) الأنبياء : الآية ٢٣ .

(٢) الأنعام : من الآية ١٤٩ .

بعث إلى كافة الخلق أجمعين .. وقد خاطبه الله تعالى بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (١) .

فبلغ جميع ما أنزله الله إليه ، وأدى الأمانة ، ونصح للخليقة .. صلوات الله تعالى وسلامه عليه .

ويجب اعتقاد أن كل ما جاء به النبى ﷺ حق ، ومن جملة ما جاء به أن الموت حق ، وأن سؤال القبر حق ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ (٢) وأن العرض حق ، وأن الميزان حق ، وأن الحوض حق ، وأن الصراط حق ، وأن تطاير الصحف حق ، وأن الجنة والنار حق ، وأن فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير ، وأن شفاعة الأنبياء والملائكة والعلماء والشهداء وصالحى المؤمنين حق ، وأن كل ماجاء به الأنبياء عن الله حق . فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة .. فاعمل بها ومت عليها . أ هـ

---

(١) الأحزاب : الآيتان ٤٥ و ٤٦

(٢) الحج : الآية ٧.

وأما عن الصفة الخامسة من الصفات الواجبة فى حق الله تعالى ، وهى :

(٥) قيامه تعالى بنفسه : فمعناها أنه تعالى موجود بلا موجد، وغنى عن كل ما سواه ، لقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿..وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ..﴾(٢)، ولأنه لو احتاج إلى شىء لكان حادثا ، وحدوثه محال ، فاحتياجه محال .

ومعناها أيضا : أنه (سبحانه) ليس مفتقرا إلى غيره ، فليس صفة فى حاجة إلى موصوف تقوم به ، ولا جسما فى حاجة إلى محل يشغله أو إلى أجزاء يتركب منها أوموجد يوجده ويخصصه ببعض ما يجوز عليه ، فهو الغنى المطلق عن كل ما سواه .

ليس صفة ؛ لأنه تعالى يتصف بالصفات الوجودية : كالعلم والقدرة ، والإرادة ونحوها ، والصفة لا تقوم بالصفة ، وإنما تقوم بالموصوف .

---

(١) فاطر : ١٥.

(٢) محمد : من الآية ٣٨ .

وليس جسما مفتقرا إلى المحل أو الموجد ؛ لأنه لو كان كذلك لكان حادثا ومماثلا للممكنات ، وواجب الوجود القديم ، مخالف للحوادث ، كما مر بك .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إن الله لغنى عن العالمين ﴾ .

(٦) الوحدانية ، فى الذات ، والصفات ، والأفعال : ومعناها أن ذاته ليست مركبة ، وليس لغيره ذات تشبه ذاته ، وأنه ليس له صفتان من جنس واحد كقدرتين وعلمين ، وليس لغيره صفة كصفته ، وأن الأفعال كلها خيرها وشرها اختياريها واضطراريها مخلوقة لله وحده بلا شريك ولا معين .

قال الله تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[1] ، وقال ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا...﴾[2] وقال : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[3] ،

وقال : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾

(١) البقرة : ١٦٣ .

(٢) الأنبياء : من الآية ٢٢ .

(٣) الصافات : ٩٦ .

أى قل يأيها النبى لمن سألك عن صفة ربك جل وعلا : هو المعبود بحق ، المتصف بكل صفات الكمال ، الواحد فى ذاته وصفاته وأفعاله ، المقصود فى قضاء حوائج الخلق على الدوام ، الذى ليس بوالد ولا مولود ، ولا شبيه له ولا نظير.

فليس هناك ذات تماثل ذاته العلية ، وليس ثم من يتصف بصفة من صفات الألوهية ، أو يأتى بفعل من أفعالها سواه تعالى .

وقد ذكر فى كتاب (البحوث الدينية) بعض الأدلة على إثبات الوحدانية للّه تبارك وتعالى ، فقال : ومن أدلة إثبات الوحدانية له ما يأتى :

أولا : أن العالم موجود ، ووجوده يدل على وجود الإله ؛ لأن كل أثر لابد له من مؤثر ، وهذا الإله إن كان واحدا فبِها ، وإن كان معه إله آخر ، فإما أن يكون أحدهما كافيا أو غير كاف ، فإن كفى أحدهما كان وجود الآخر عبثا ، وإن لم يكف كان كلاهما عاجزا لا يصلح إلها .

ثانيا : أن تعدد واجب الوجود معناه أن هناك آلهة لكل ذات معينة ، وصفات معينة ، وكل واحد بمقتضى وجوده وما يتبعه من

الصفات ، له التصرف فى عامة الممكنات ، ولا يعقل مع هذا أن تتفق تصرفاتهم اتفاقا تاما ، وتلتئم التئاما دقيقا لتحقيق هذا النظام الذى نراه فى الكون ، بل لابد أن تتضارب أفعالهم ، فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل وجوده ، ولكنه كما نرى موجود محكم لا يعتريه اضطراب ، فلابد أن يكون الإله واحدا ، قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١) . وقال : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

ثالثا : لو تعددت الآلهة لحدث بينها ما يحدث بين الذوات المختلفة. من ذوى السلطان فى الأرض من التنافس والنزاع ، وتَعَالِى بعضهم على بعض ، وتفرد كل بملكه واستقلاله فيه بما يشاء من تصرف. وتلك صورة مضحكة أن ينحاز كل فريق من المخلوقات إلى إله ، يذهب كل إله بمخلوقاته كما تصور الآية الكريمة التى يقول الله تعالى فيها : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ

---

(١) الأنبياء : من الآية ٢٢ .

عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [1] .

وفى شرح الجامع الصغير للمناوى قال الأزهرى : الفرق بين الواحد والأحد أن الأحد بنى لنفى ما يذكر معه من العدد ، تقول: ماجاءنى أحد ، والواحد اسم بنى لمفتتح العدد ، تقول : جاءنى واحد من الناس ولا تقول جاءنى أحد ، فالواحد منفرد بالذات فى عدم المثل والنظير ، والأحد منفرد بالمعنى . أ هـ .

والمراد اتصافه تعالى بالوحدانية : (ذاتا) ، أى فى ذاته سبحانه، وهو انتفاء الكثرة عن ذاته تعالى ، بمعنى عدم قبولها الانقسام والتبعيض والتجزىء وإلا لكان مركبا فى ذاته ، وكل مركب حادث كما مر .

(وفِعْلاً) ، أى فى أفعاله تعالى ، وهو انفراده تعالى باختراع الكائنات عموما وامتناع إسناد التأثير لغيره تعالى فى شىء من الممكنات .

(وصفةً) ، أى فى صفاته سبحانه ، فلا تعدد لصفة من صفاته تعالى ، بل كل صفة من صفاته واحدة ولا يتصف غيره بصفة تشبه صفة من صفاته تعالى .

---

(١) المؤمنون : ٩١ .

* * وللّه در من قال فى منظومته [1] :

مـعـرفة اللـه عـلـيـك تفـتـرض

بـأنـه لا جـوهـر ولا عَـرَضْ

وليـس يحـويه مـكـان لا ، ولا

تـدركه الـعـقـول جـل وعَـلا

لا ذاتـه تـشـبـهـه الـذواتُ [2]

ولا حكت [3] صفاته [4] الصفاتُ [5]

ومـا لـه فـى مـلـكـه وزيـر

ولا لـه مِثْـلٌ ولا نـظـيـر

---

(١) الشيخ إسماعيل بن عبد الغنى النابلسى الحنفى . رحمه الله تعالى .

(٢) الحادثة كلها ما كان منها وما لم يكن .

(٣) أى ماثلت وشابهت .

(٤) أى أسماؤه الأزلية القديمة .

(٥) الأسماء كلها .

obeikandl.com

فَـرْدٌ لـــه مـن تتـــــم المـــعـــرفـة

وواحد ذاتـــا وفِـــعْـلاً ، و صـفَـــهْ

وهـو الـقـــديم وحـــده والبـــــاقى

فى القـيد نـحـن وَهْوَ فى الإطـــلاق

حـــــى عـلـيـــم قـــادر مـريـــدُ

فـى خـلـقـه يفـعـل مـــا يـريـــدُ

وهـــو الســمـيـع والبصـير لـم يـزلْ

بغـيـــــر مـــا جـــارحة مـــن الأزلْ

لـه كـــلام ليـــس كـالمعـــروفِ

جل عن الأصـــوات والحـــروفِ

وبقضـــاء اللـــــه والتـقـــــدير

جميع ما يجـــرى مـــن الأمـــورِ

وكل مـا يوجد من فـــعـل البـشرْ

فإنـه بخـلـقـــــه خيـــر وشـــــر

كلَّفَ عبـــده ومـا قـد جـارا

وهـــو الذى يجعـــله مختـــارا

أرســـل رُسْلَـــه الكـــرامَ فينـــا

مبـــشـــرين بـــل ومـــنـــذرينـا

(٧) الحياة : وهى صفة قديمة قائمة بالذات العلية تصحح لموصوفها الاتصاف بالعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر ، وما إلى ذلك من الصفات اللائقة به تعالى (وحياته) ليست بروح . ودليلها قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾(١) ، قوله ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ... ﴾(٢) ، وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ... ﴾ (٣) .

وهناك فرق بين حياة الله وحياة عباده ، فحياته كوجوده واجبة لا تقبل الانتفاء ، أزلية لا أول لها ، وأبدية لا نهاية

---

(١) آل عمران : الآية ٢ .

(٢) طه : من الآية ١١١ .

(٣) الفرقان: من الآية ٥٨ .

لها ، أما حياة العباد فهى ممكنة ، حادثة تبدأ وتنتهى بإرادة الله، كما أن حياته جل شأنه منزهة عن الأعراض التى تتمثل بها حياة العباد، من وجود الروح ، وسريانها فى الأعضاء ، وقيام كل عضو منها بوظيفة خاصة ، وما يستتبع ذلك من الحركة ، والنماء ، والحاجة إلى التغذية ، وعوامل الحياة ، ثم ما يعقبه من التدهور والموت ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

والدليل العقلى على ثبوت صفة الحياة لله تعالى : أنه لو لم يتصف بها لاتصف بضدها وهو الموت ، ولو اتصف بالموت لما صح اتصافه بالعلم والإرادة وباقى صفات المعانى والمعنوية ؛ إذ يستحيل أن يكون غير الحى عالما مريدا ، لكن ثبت اتصافه بتلك الصفات ، فوجب اتصافه بالحياة .

والدليل النقلى : هو قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ... ﴾[1] .

(٨) العلم : وهو صفة وجودية قائمة بذاته تعالى تحيط بكل موجود واجبا كان أو جائزا ، وبكل معدوم مستحيلا كان أو

---

(١) الفرقان : من الآية ٥٨ .

ممكنا. فهو تعالى يعلم وجود ذاته وصفاته وأنها قديمة لا تقبل العدم. ويعلم أنه لا شريك له وأن وجود الشريك محال . ويعلم جواز حدوث الممكن وعدمه . ويعلم فى الأزل عدد من يدخل الجنة ومن يدخل النار جملة واحدة ، فلا يزاد فى ذلك العدد ولا ينقص منه . ويعلم أفعالهم وكل ما يكون منهم . ويعلم أنه عالم بكل الأمور لا تخفى عليه خافية .. قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ ... يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ... ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ... ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٦) .

---

(١) الملك الآية ١٤ .

(٢) طه : ، الآية ٩٨ .

(٣) البقرة ، من الآية ٢٥٥ .

(٤) الحشر : من الآية ٢٢ .

(٥) غافر : ١٩ .

(٦) الأنفال : الآية ٧٥ .

ومن الأدلة العقلية على هذا : أنه تعالى لو لم يكن عالما لكان جاهلا ، ولو كان جاهلا لكان حادثا ، وحدوثه محال لما سبق ، فالجهل عليه تعالى محال .

وعلم اللّه تعالى ، لا يماثل علم المخلوقات بوجه من الوجوه.؛ لأن علمه تعالى واجب لذاته وليس عارضا أو مكتسبا بأية آلة أو وسيلة ، وهو أزلى قديم باق لا ينفك عن الذات ، كما أنه عام شامل لجميع الواجبات ، والمستحيلات والممكنات ، من كليات العالم وجزئياته ، فيعلم ـ سبحانه ـ الواجب وأنه واجب ، ويعلم المستحيل واستحالته ، كما يعلم الممكن سواء أكان موجودا أم معدوما ، سيوجد أم لا يوجد ، لا يعزب عن علمه تعالى شيء فى الأرض ولا فى السماء .

أما علم العباد فعارض مكتسب ، وحادث يتجدد فى كل زمان، وهو ـ كوجودهم ـ له أجل ينتهى عنده ، ثم هو قاصر محدود ، فما أكثر ما يجهل العباد من حقائق الكون ومخلوقات اللّه ، قال تعالى :

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) ، وقال ﴿ ... وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

(٩) الإرادة : وهى صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه كوجود المخلوق فى زمن دون غيره ، وفى مكان دون آخر ، وهكذا ، لقوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ...﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ... ﴾ (٦) ، وقوله تعالى : ﴿...يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ...﴾ (٧) .

(١) العلق : ٥ .

(٢) النحل : من الآية ٨ .

(٣) القصص : من الآية ٦٨ .

(٤) الشورى : الآية ٤٩ .

(٥) البروج : الآية ١٦ .

(٦) الأنعام : من الآية ١٢٥ .

(٧) البقرة : من الآية ١٨٥ .

وقد قرأت توضيحا لهذا فى (البحوث الدينية) جاء فيه : فالإنسان مثلا يقبل أن تتوارد عليه صفات متعددة : من طول أو قصر ، وبياض أو سواد ، وملاحة أو قبح ، وذكاء أو غباوة ، ونحو ذلك ، كما يقبل أن يكون مؤمنا أو كافرا ، وأن يكون بَـرًّا تقيا ، أو جبارا عَصِيّاً .

وتخصيص اللّه له ببعض هذه الصفات دون بعض هو مفهوم الإرادة بالنسبة له ، وهكذا سائر الممكنات . فإن إرادته تعالى تتعلق بهـا تعلق تخصيص، بمعنى أنهـا تخصص فى الأزل كل ممكن بصفات معينة يوجد عليها ، وفى زمن خاص يوجد فيه .

أما الواجبات والمستحيلات فلا تتعلق بها الإرادة ؛ لأن الواجب موجود لا يقبل الانتفاء ، والمستحيل معدوم لا يقبل الوجود ، فلا معنى للإرادة معهـما . وليس معنى الإرادة فى جانب اللّه تعالى ما يتبادر إلى الذهن من الرغبة فى تنفيذ شىء أو العدول عنه ؛ لأن هذه الحالة تعد نقصا فى جانبه تعالى ؛ إذ هى تقتضى قصور العلم، وعدم الإحاطة ، والتردد بين البواعث على الفعل أو الترك ، وهذا محال عليه جل شأنه .

إن إرادته واجبة ، قديمة ، باقية ، تامة ، ولا كذلك إرادة العباد فهى ممكنة كذواتهم ، حادثة ، فانية ، قاصرة تقف عند حد خاص، ولا تتناول إلا بعض الممكنات .

ومما يدل على ثبوت الإرادة له ـ سبحانه ـ أنه لو لم يكن مريداً لحدث فى ملكه مالا يقصده أو ما أُكْرِه عليه ، وذلك عجز لا يليق بكماله تعالى ... ثم يقول :

وقد ثبت لك أنه واجب الوجود ، وأن كل شىء من الممكنات مخلوق له ، وأنه يوجد على قدر مخصوص ، وصفات معينة ، وفى زمان ومكان محدودين ، وهذه إما أن تكون على وفق علمه تعالى أو لا ، فإن كانت موافقة له فتلك هى الإرادة التى يعنيها علماء الكلام .

وإن كانت غير موافقة له ، كان هذا العلم ناقصا ، وقد ثبت كماله فيما تقدم ، قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ... ﴾ (١) ، وقال : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٣) .

---

(١) القصص : من الآية ٦٨ .

(٢) البروج : ١٦ .

(٣) القمر : ٤٩ .

وهنا نعرض لشبهة كثيرا ما تتردد على الأذهان ، مثيرة للحيرة والاضطراب ، وهى : ما دام كل شيء يحدث على وفق علم الله، وعلى حسب ما أراده ، فكيف يحاسب الإنسان على أفعاله ، وهو لا يستطيع أن يأتى بشيء لم يعلمه الله ، ولم يرده ، أو يتخلى عن شيء علمه وأراده ؟

وتلك هى مشكلة القضاء والقدر ، والجبر والاختيار التى شغلت أذهان الباحثين من علماء الكلام ، واختلفوا فيها اختلافا كثيرا .

* * ولهذا ، فإننى أرى ـ وقبل أن أعود مرة أخرى إلى إتمام هذا الموضوع ـ أن نقف هنا على ما جاء فى كتاب « تهذيب شرح الخريدة » تحت عنوان :

الإرادة والأمر

مذهب أهل السنة فى إرادة الله تعالى :

ذهب أهل السنة إلى القول بأن الله تعالى يريد الخير والشر ، وأن كل ما تحقق فى الكون من خير أو شر فهو مراد له تعالى سواء أمر به أَوْ لا ، وأن كل ما لم يتحقق فى الكون فهو غير مراد له

تعالى سواء أمر به أوْ لا .. فالأقسام أربعة :

١ – مأمور به ومراد . ٢ – وعكسه [١] .

٢ – ومأمور غير مراد . ٤ – وعكسه [٢] .

واستدلوا على مذهبهم هذا بأدلة كثيرة منها :

١ – إجماع الأمة من عهد النبوة على القول بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وقد ورد هذا اللفظ مرفوعا إلى النبى ﷺ فيكون سندا للإجماع .

٢ – الآيات القرآنية ومنها قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [٣] .

* * وأما مذهب أهل السنة فى الإرادة والأمر :

فقد ذهب أهل السنة إلى أن الإرادة غير الأمر ، وإنه لا تلازم بينهما ، أما أن الإرادة غير الأمر فلأن الإرادة صفة تخصص الممكن

---

(١) أى أنه سبحانه قد لا يأمر بالشىء ولا يريده

(٢) أى أنه سبحانه قد لا يأمر بالشىء ويريده

(٣) الأنعام : من الآية ١٢٥ .

ببعض ما يجوز عليه ، والأمر يرجع للكلام النفسى كالنهى . وأما أنه لا تلازم بينهما فلأنهما قد يجتمعان فى شىء كإيمان أبى بكر وقد ينفردان كما فى إيمان أبى جهل ، فإنه مأمور به غير مراد ، ومما يدل على تغاير الإرادة والأمر وعدم تلازمهما قوله ﷺ، (**ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن**) لأن معنى (ما شاء الله كان) ما أراده الله وقع ، فيؤخذ منه صراحة أن الإيمان من الكفار غير مراد لله ـ مع أنه أمر به ؛ لأنه تعالى لو أراده لوقع . ومعنى (وما لم يشأ لم يكن) : وما لم يرده لا يقع ، فيؤخذ منه صراحة أن المعاصى مرادة لله ـ مع أنه تعالى لم يأمر بها بل نهى عنها : ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ... ﴾ [1] ـ لأنه تعالى لو لم يردها لما وقعت .. ويتفرع على مذهب أهل السنة

١ – أن الله يأمر بشىء ويريده كإيمان المؤمنين .

٢ – وقد لا يأمر بشىء ولا يريده كالكفر من المؤمنين .

٣ – وقد يأمر بشىء ولا يريده كالإيمان من الكافرين .

---

(١) الأعراف : من الآية ٢٨ .

٤- وقد لا يأمر بشيء ويريده ككفر الكافرين .

فاعلم أن أهل السنة بنوا مذهبهم فى إرادة الله على مذهبهم فى الإرادة والأمر .

* * وأما مذهب المعتزلة فى إرادة الله تعالى فقد ذهب المعتزلة إلى القول بأن الله تعالى يريد الخير ولا يريد الشر ، وبنوا مذهبهم هذا على مذهبهم فى الإرادة والأمر :

فقد ذهب بعض المعتزلة إلى أن الإرادة عين الأمر ، فأمر الله بشيء عين إرادته لذلك الشيء .. وذهب آخرون منهم إلى أن الإرادة تغاير الأمر إلا أن بينهما تلازما فى التعلق ، فما أمر به تعالى أراده ، وما لم يأمر به لم يرده ، وبنى الفريقان على هذا المذهب أن الله تعالى لا يريد المعاصى كما ذكرنا آنفا ، ويلزم على هذا المذهب أمران :

١- أن يقع فى ملكه تعالى ما لا يريده ؛ لأنهم قالوا إنه تعالى لم يرد المعاصى لأنه لم يأمر بها ، مع أن المعاصى قد وقعت بالفعل.

٢ - أن يتخلف مراد اللّه تعالى ؛ لأنهم قالوا إنه تعالى أراد الإيمان من جميع الناس لأنه أمرهم به إلا أن منهم من آمن ومنهم من

كفر ، فإيمان من كفر قد تخلف .. وهذان الأمران باطلان على مذهب أهل السنة .

وأدلتهم على هذا ـ وهو أن الله تعالى لا يريد المعاصى : فقد استدل المعتزلة ـ هؤلاء ـ على أن الله لا يريد المعاصى بأدلة منها :

١ – أن المعاصى قبيحة ، وإرادة القبيح قبيحة ، كما أن خلق القبيح عندهم قبيح ، والله تعالى منزه عن القبائح ، فهو لا يريدها ولا يخلقها أيضا ، فعندهم أن أكثر ما يقع من أفعال العباد ليس بإرادة الله ولا بخلقه وإيجاده ، وإنما هو بمراد العبد وإيجاده .

٢ – أنه تعالى لو أراد المعاصى لأمر بها ، لكنه لم يأمر بها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ (١) فلم يردها .

واعترض أهل السنة على الدليل الأول ، بأن إرادة القبيح ليست قبيحة ، إنما القبيح اكتساب القبائح والاتصاف بها ، واعترضوا على الثانى ، بأنه مبنى على القول باتحاد الإرادة والأمر أو تلازمهما ، وقد بينا أنه لا اتحاد ولا تلازم بينهما ، فلا يلزم من عدم الأمر بالمعاصى عدم إرادتها ، بل يريدها ولا يأمر بها ، وإلى

(١) الأعراف : من الآية ٢٨ .

هذا أشار صاحب (الخريدة) بقوله :

... ...

وكـــل شـــيء كـــائـن أراده

وإن يكـن بضـــــده قـد أمـرا

فالقـصـد غير الأمر فاطـرح المِـرَا

فقد علـمت أربـعـا أقســـامـا

فى الكائنـات فاحـفظ المقـــامـا

المعنى (كائن) أى موجود خيرا كان أو شرا (أراده) أى أراد اللّه وجوده ، فلا يقع فى ملكه إلا ما يريد . وهذه إشارة لمذهب أهل السنة فى الإرادة (وإن يكن بضده قد أمرا) أى بضد ذلك الكائن المراد ، أى وإن كان ذلك الكائن قد أمر اللّه تعالى بضده ككفر أبى جهل فإنه كائن ، وقد أمر اللّه بضده وهوالإيمان ونهى عن الكفر، ومع ذلك هو مراد اللّه تعالى بدليل وقوعه (فالقصد غير الأمر) أى فالإرادة مغايرة للأمر ، بل ولا تستلزمه كما أن الأمر لا يستلزمها ، وهذا إشارة إلى مذهب أهل السنة فى الإرادة

والأمر (فاطرح المرا) أى فاترك الجدال والنزاع الباطل من المعتزلة الذاهبين إلى أنه تعالى يقع فى ملكه ما لا يريده ـ وقد بينا مذهبهم فيما سبق ـ (فقد علمت) من قولنا : وكل شيء كائن أراده ـ وإن يكن بضده قد أمرا ـ منطوقا (وهو إن شاء وقع وإن لم يأمر به) ومفهوما ، (وهو إن لم يشأه لم يقع وإن أمر به) . (أربعا أقساما) أقساما عطف بيان لأربع (فى الكائنات) جمع كائنة أى فى الموجودات ، وهذا إشارة للأقسام الأربعة المتفرعة من مذهب أهل السنة (فاحفظ) هذا (المقاما) فإنه قد زلت فيه أقدام المعتزلة .

* * والخلاصة التى نريد أن نعود إليها هى كما جاء فى « البحوث الدينية » :

أنه سبحانه وتعالى عليم محيط بأحوال خلقه من الأزل إلى الأبد، وأن كل ما يحدث فى ملكه يقع على وفق علمه ، فهو يعلم حالة عبده ، وما يكون منه من كفر وإيمان ، ومعصية وطاعة، وإساءة وإحسان ، لابد أن يكون مايصدر عن العبد موافقا لهذا العلم.

ولكن هذا الانكشاف لا أثر له فى توجيه الإنسان وجهة خاصة ، ولا فى إكراهه على سلوك ناحية معينة ؛ لأن العلم ليس

صفة مؤثرة .

والمرء لا يدرى ما قدر له ، ولتستبين ذلك نسوق لك هذا المثال: إن الفلكى يستطيع بمقاييسه وقوانينه أن يخبر عن خسوف للقمر يحدد يومه وزمنه بالساعة والدقيقة ، ومدة مكثه ومقداره ، والأقاليم التى يشملها ، ثم يحدث هذا كله طبقا لما أخبر به تماما . فهل كان علمه مؤثرا فى حدوث هذا الخسوف ؟

كلا إن العلم لا أثر له فى شىء من ذلك ، وإنما هو مجرد إحاطة وانكشاف .

وكذلك إرادة الله ليست إلزاما منه لعبده أن يأتى بأفعال خاصة، وإنما هى تقدير هذه الأفعال حسب علمه تعالى بما سيكون من الشخص من رغبة فى الخير وإقبال عليه ، أو زهد فيه وإعراض عنه، وبما يسوقه إليه اختياره من الطاعة أو المعصية .

فللمرء اختياره وقدرته على تصريف شئونه ، والإقدام على فعل الشىء أو تركه ، وعلم الله الواسع الشامل يكشف ما سيكون منه من خير أو شر .

وإرادته تعالى تبعا لهذا العالم تخصص ما سيقع من أفعاله ، وليس فى هذا كله شيء من الجبر أو الإكراه ، كما لايخفى .

ولو رجع الإنسان إلى نفسه لرأى أنه يشعر باختياره إلى حد كبير ، وأنه يزن الأمور ويقدرها بعقله ، ثم يفعل ما يفعل ، ويدع ما يدع بإرادته ، وبسبب هذا الاختيار وتلك القدرة يعاقب الإنسان أو يثاب على عمله ، ولو كان مكرها على أفعاله ما كان خليقا بإثابة ، ولا مستحقا لعقاب ، ومن أجل هذا رفع الشرع عن الشخص تبعة الأعمال التى يأتيها من غير قصد واختيار . قال ﷺ :

(**رُفِعَ عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**) .

* * وإتماما للفائدة فى هذا الباب بالذات أرى أن أسجل هنا مسألتين من المسائل التى أوردها صاحب كتاب (معارج القبول) ، وهما :

* المسألة الأولى ، يقول فيها :

فإن قيل قد أخبرنا الله عز وجل فى كتابه وعلى لسان رسوله وبما علمنا من صفات أنه يحب المحسنين ، ويحب المتقين ،

ويحب الصابرين ، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يحب الكافرين ، ولا يحب الظالمين ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحب الفساد ، مع كون ذلك بمشيئته وإرادته وأنه لو شاء لم يكن ذلك ، فإنه لا يكون فى ملكه ما لا يريد ، فما الجواب ؟ قلنا :

إن الإرادة والقضاء والأمر كل منها ينقسم إلى كونى وشرعى، ولفظ المشيئة لم يرد إلا فى الكونى ، كقوله تعالى :

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ... ﴾ (١) .

ومثال الإرادة الكونية قوله تعالى : ﴿ ... وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ... ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٣) .

ومثال القضاء الكونى قوله تعالى : ﴿ ... وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٤) .

---

(١) الإنسان : من الآية ٣٠ .

(٢) الرعد : من الآية ١١ .

(٣) يس : ٨٢ .

(٤) البقرة : من الآية ١١٧ .

ومثال الأمر الكونى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[1] . فهذا القسم من الإرادة والقضاء والأمر هو مشيئته الشاملة ، وقدرته النافذة، وليس لأحد خروج منها ولا محيد عنها . ولا ملازمة بينها وبين المحبة والرضا ، بل يدخل فيها الكفر والإيمان، والسيئات والطاعات ، والمحبوب المرضى له ، والمكروه المبغض ، كل ذلك بمشيئته وقدره وخلقه وتكوينه ، ولا سبيل إلى مخالفتها ولا يخرج عنها مثقال ذرة .

ومثال الإرادة الشرعية قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ... ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ... ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾[4]

---

(١) الإسراء : ١٦ .

(٢) البقرة : من الآية ١٨٥ .

(٣) النساء : من الآية ٢٦ .

(٤) النساء : ٢٧ .

ومثال القضاء الشرعى ، قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا .. ﴾ (١) .

ومثال الأمر الشرعى ، قوله تعالى : : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وهذه الإرادة والقضاء والأمر الشرعى هو المستلزم لمحبة الله تعالى ورضاه ، فلا يأمر إلا بما يحبه ويرضاه ، ولا ينهى إلا عما يكرهه ويأباه . ولا ملازمة بين هذا القسم وما قبله إلا فى حق المؤمن المطيع ، وأما الكافر فينفرد فى حقه الإرادة والقضاء ، فالله سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى طاعته ومرصاته وجنته ويهدى لذلك من يشاء فى الكون والقدر هدايته ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٣) ، فعمم الدعوة إلى جنته التى هى دار السلام وأنه

---

(١) الإسراء : من الآية ٢٣ .

(٢) النحل : ٩٠ .

(٣) يونس : ٢٥ .

يدعو إلى ذلك جميع عباده وهوأعلم بمن يستجيب ممن لا يستجيب ، وخص الهداية بمن يشاء هدايته كما قال تعالى : ﴿... يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ...﴾ (١) .

* وفى المسألة الثانية يقول :

فإن قيل : أليس بممكن فى قدرته تعالى أن يجعلهم كلهم طائعين مؤمنين مهتدين ؟ قلنا :

قدمنا لك أن هذا الذى فعله بهم هو مقتضى حكمته وأسمائه وصفاته وموجب ربوبيته وإلهيته ، وهو أعلم بمواقع فضله وعدله ، فحينئذ قول القائل : لم كان من عباده الطائع والعاصى ؟ كقول من قال : لم كان من أسمائه الضار النافع ، والمعطى المانع، والخافض الرافع ، والمنعم والمنتقم ونحو ذلك . إذ أفعاله تعالى هى مقتضى أسمائه وآثاره وصفاته .

فالاعتراض عليه فى أفعاله اعتراض على أسمائه وصفاته ، بل وعلى إلهيته وربوبيته ، فسبحان رب العرش عما يصفون ،

---

(١) النور : من الآية ٣٥ .

﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (١) .

* * وقد قرأت حول هذا المعنى الأخير أن شيطانا من شياطين الإنس جلس فى مجلس الإمام الشافعى رضى الله عنه ، ثم وجه إليه السؤال الآتى بُغْيَةَ إحداث فتنة أو خلخلة فى عقول ضعفاء الإيمان ، فقال : يا إمام المسلمين ، ما قولك فيمن خلقنى كما اختار ، واستخدمنى فيما اختار.. وبعد ذلك إن شاء أدخلنى الجنة ، وإن شاء أدخلنى النار ، أَعَدَلَ فى ذلك أم جار ؟

فقال الإمام بنور من الله تبارك وتعالى : يا هذا إن كان خلقك لما تريد أنت فقد ظلمك ، وإن كان خلقك لما يريد هو فلا يسأل عما يفعل .

* * ومن أجمل ما قرأت كذلك حول هذا الموضوع ما رواه النيسابورى فى تفسيره بإسناده :

* أن على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ سأله سائل عن القدر، فقال : بحر عميق لا تخض فيه ، فقال : ياأمير المؤمنين ،

---

(١) الأنبياء : ٢٣ .

أخبرنى عن القدر ؟ فقال : سر خفى لا تفشه ، فقال يا أمير المؤمنين ، أخبرنى عن القدر . فقال على رضى اللّه عنه : يا سائل، إن الله تعالى خلقك كما شاء أو كما شئت ؟ فقال : كما شاء . فقال : إن اللّه يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما يشاء ؟ فقال كما يشاء . فقال : يا سائل ، لك مشيئة مع اللّه أوفوق مشيئته ، أو دون مشيئته ؟ فإن قلت مع مشيئته ادعيت الشركة معه ، وإن قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وإن قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته . ثم قال : ألست تسأل اللّه العافية ؟ قال: نعم . قال : فَمِنْ ماذا تسأله العافية ؟ أَمِنْ بلاء ابتلاك به ، أو من بلاء غيره ابتلاك ؟ قال : من بلاء ابتلانى به . فقال : ألست تقول : « لا حول ولا قوة إلاباللّه العلى العظيم » ؟ قال : بلى ، قال: تعرف تفسيرها ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، علمنى مما علمك اللّه . فقال : تفسيرها أن العبد لا قدرة له على طاعة اللّه ولا معصيته إلا باللّه عز وجل . يا سائل ، إن اللّه يسقم ويداوى ، منه الداء، ومنه الدواء، اعقل عن اللّه عز وجل، فقال السائل :عقلت. فقال له : الآن صرت مسلما . قوموا إلى أخيكم المسلم فخذوا بيده. ثم قال على رضى اللّه عنه وأرضاه : لو وجدت رجلا من

أهل القدر لأَخَذْتُ بعنقه ، ولا أزال أضربه حتى أكسر عنقه ، فإنهم يهود هذه الأمة .

* * فلاحظ كل هذا ـ أخا الإسلام ـ حتى لا تكون ـ والعياذ بالله ـ قَدَرِيّاً ، وحتى لا تلعب شياطين الإنس والجن بك .

* * وأما عن الصفة العاشرة من الصفات الواجبة فى حق الله تعالى وهى:

(١٠) القدرة ، فهى صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ ... وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى ﴿ ... وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (٣) .

ولأنه لو لم يكن قادرا لكان عاجزا ، وعجزه محال ، كيف وهو خالق كل شىء؟

---

(١) الذاريات : ٥٨ .

(٢) التغابن : من الآية ١ .

(٣) الكهف : من الآية ٤٥ .

ومن اليسير عليك بعد أن عرفت أنه سبحانه واجب الوجود ، وأن الممكنات قد صدرت عنه ، وكانت على حسب علمه ، وعلى وفق إرادته ـ أن تسلم بأنه قادر ؛ لأن القدرة ليست شيئا أكثر من سلطاته على تنفيذ ما علم وأراد .

على أن خلق هذا الكون الفسيح ، وإحكامه ، ونواميسه ، واطراد سيره ، وما به من مجالى الدقة والإبداع : لا يمكن أن يصدر إلا عن قدرة باهرة وسلطة لا تحد .

وكيف يكون اللّه عاجزا ، ومقام الألوهية يقتضى الاتصاف بكل كمال، والتنزه عن كل نقص ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

* وقد أشار فى (الدين الخالص) جـ ١ إلى ملاحظة هامة بتعلق الإرادة والقدرة ، فقال :

إن الإرادة والقدرة يتعلقان بكل ممكن من أفعالنا الاختيارية وما له سبب له كالإحراق عند مماسة النار ، وما لا سبب له كخلق

---

(١) البقرة : من الآية ٢٠ .

السماء .

وتعلق القدرة فرع تعلق الإرادة الذى هو فرع تعلق العلم؛ إذ لا يوجد الله تعالى شيئا ولا يعدمه إلا إذا أراد وجوده أو إعدامه ، وقد سبق فى علمه أنه يكون أو لا يكون

(١١) السمع : وهو صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تحيط بكل موجود واجبا أو ممكنا صوتا أو لونا أو ذاتا أو غيرها ، فهو يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الملساء فى الليلة الظلماء بلا أذن ولا صماخ .

(١٢) البصر : وهو صفة وجودية قديمة بالذات العلية تحيط بكل موجود ـ واجبا أو جائزا جسما أو لونا أو صوتا أو غيرها بلا حدقة ـ إحاطة غير إحاطة العلم والسمع .

والدليل على أنه تعالى سميع بصير قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (١) ، قوله تعالى : ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (٢) ، ولأنه تعالى لو لم يكن

(١) غافر : من الآية ٥٦ .

(٢) الحج : من الآية ٧٥ .

سميعا بصيرا لكان أصم أعمى ، وهو نقص ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

(١٣) الكلام : وهو صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تدل على كل موجود واجبا أو جائزا ، وعلى كل معدوم محالا أو جائزا . وليس كلامه تعالى بحرف ولا صوت ، ولا يوصف بجهر ولا سر ولا تقديم ولا تأخير ولا وقف ولا سكوت ولا وصل ولا فصل ؛ لأن هذا كله من صفات الحوادث ، وهى محالة عليه تعالى ، ودليله قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (١) ، ولأنه تعالى لو كان غير متكلم لكان أبكم ، والبكم نقص محال فى حقه تعالى . والقرآن والتوراة والإنجيل والزبور وباقى الكتب المنزلة ، تدل على بعض ما يدل عليه الكلام القديم ، قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا

(١) النساء : من الآية ١٦٤ .

(٢) الكهف : الآية ١٠٩ .

نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ... ﴾ (١) .

* * وحول هذه الصفات الثلاث ـ السمع ، والبصر ، والكلام ـ قرأت تعليقا هاما فى كتاب : « البحوث الدينية ـ التوحيد» أرى من الخير كذلك أن أضيفه حتى ننتفع به ، وهو :

أن هذه الصفات الثلاث لا يهتدى النظر وحده إليها ، بعد أن أثبت لواجب الوجود صفة العلم الذى يتحقق به الانكشاف التام لجميع الكليات والجزئيات ، ولكن القرآن قد صرح بها فى كثير من مواطنه ، قال تعالى : ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾وقال جل شأنه: ﴿... وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (٢) ، وقال تعالى: ﴿... يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ...﴾(٣) .

ومن أجل هذا سميت بالصفات السمعية ؛ لأن طريق إثباتها السمع .

---

(١) لقمان : من الآية ٢٧ .

(٢) النساء : من الآية ١٦٤ .

(٣) الأعراف : من الآية ١٤٤ .

وليس يصعب على العقل التسليم بها والبرهنة عليها ، فيجب الاعتقاد بها بشرط حملها على ما يناسب كماله تعالى ، ويليق بذاته العلية .

فالسمع صفة تنكشف له بها الأصوات ما ظهر منها وما خفى. والبصر صفة تنكشف له بها المرئيات دقيقها وجليلها . فهما يتعلقان بالموجود من المسموعات والمبصرات ، ولا يتعلقان بالمعدوم منها . ولكن سمعه تعالى وبصره يختلفان عن سمع العباد وبصرهم، فسمعه جل شأنه بغير أُذُن ، أو آلة، ولا تلقى موجات صوتية ، ولا غير ذلك من شرائط السمع المعهودة لنا . وبصره بغير عين ولا حدقة ، ولا اتصال أشعة ، ولا مقابلة مرئى، ولا غيرها مما يلابس رؤيتنا المعتادة .

وسمعه وبصره فى نهاية الكمال ، فهو يسمع كل مسموع ، ويبصر كل مبصر بلا فرق بين بعيد وقريب ، وظاهر وخفى ، ودون أن يشغله شيء عن شيء ، كما أنهما ليسا من وسائط علمه ، فَعِلْمُه ـ جل وعلا ـ إحاطةٌ تامة بلا سبب أو وسيلة ، وهما أيضا صفتان واجبتان لذاته العلية ، قديمتان بِقِدَمه باقيتان

ببقائه ، بخلاف سمع العباد وبصرهم فى كل ذلك .

والكلام صفة يتأتى أن يفهم بها ـ جل شأنه ـ من أراد من عباده ما شاء أن يفهمه له .

وكما يطلق لفظ العلم الذى يستعمله البشر لأنفسهم الإلهى المحيط بكل شىء ، كذلك يطلق لفظ الكلام على هذه الصفة الإلهية .

وهى تتعلق بالواجبات والمستحيلات والممكنات على السواء ، فيكشف بها الله تعالى لمن يشاء من خلقه كملائكته ورسله ما شاء من واجب ومستحيل وجائز . ولكن كلامه تعالى بلا لسان،ولا شفة ، ولا أعضاء نطق ، ولا حروف ولا صوت ، ثم هو ذاتى ، قديم ، باق ، ولا كذلك كلام الحوادث . وقد لا يراد بكلام الله هذه الصفة النفسية ، بل يراد به ما نزل على رسله من الكتب السماوية ، وهو بهذا المعنى يعتبر حادثا مخلوقا له تعالى. ومما يستدل به عقلا على إثبات هذه الصفة له أنه هو الذى يمنحها خلقه ، وليس من المعقول أن يمنحهم ما لا يملك . ثم إنها كمال فى الموجودات ، ولا يتصور أن يكون الإله أقل كمالا من مخلوقاته.

ولو لم يكن سبحانه متصفا بها لا تصف بأضدادها ، وذلك نقص ، والنقص عليه محال .

* * وقد ختم (إمام أهل السنة الشيخ محمود خطاب السبكى رحمه الله تعالى فى الجزء الأول من (الدين الخالص)ـ الحديث عن الصفات الواجبة فى حق الله تعالى ، بقوله :

وله تعالى صفات غير ذلك كالجلال ، والجمال ، والعزة ، والعظمة ، والكبرياء ، والقوة ـ وهى غير القدرة ـ والوجه ، والنفس ، والعين ، واليد، والأصابع ، والقدم ، والمحبة ، والرضا ، والفرح ، والضحك ، والغضب ، والكراهية ، والعجب ، والمكر ، ونحو ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة ، فيجب الإيمان به بلا كيف فنقول : له تعالى يد لا كالأيدى . ونفوض معرفة ذلك وتفصيله إلى الله تعالى ولا نؤول أن يده تعالى قدرته أو نعمته وأمثال ذلك ؛ لأن فيه إبطال الصفة التى دل عليها الكتاب والسنة ، ولكن نقول يده صفة له بلا كيف .. وهكذا . وغضبه ومكره واستهزاؤه غير انتقامه وغير إرادة الانتقام ، بل من صفاته بلا كيف ، وهذا مذهب السلف فى المتشابهات . وبه نقول ، ثم يقول :

هذا ما يلزم اعتقاده ومعرفته تفصيلا من الواجب فى حقه تعالى.

(وأما الواجب) معرفته إجمالا فهو أن يعتقد المكلف أن اللّه تعالى متصف بكمالات موجودة تليق به تعالى لا نهاية لها يعلمها اللّه تعالى تفصيلا، ويعلم أنها لا نهاية لها ؛ لأنه لو انتفى عنه تعالى شيء من الكمال الذى يليق به لكان ناقصا ، والنقص محال فى حقه ؛ لاستلزامه الحدوث المحال عليه تعالى .

* * وأما عن :

المستحيل في حق الله تعالى

فيقول ما نصه :

يستحيل فى حقه تعالى بالأدلة التفصيلية السابقة ثلاث عشرة صفة مقابلة للصفات الواجبة له تعالى على الترتيب السابق . وهى : العدم ، والحدوث ـ وهو الوجود بعد عدم ـ والفناء ، ومماثلته تعالى للحوادث ـ (فى الذات) بأن يكون جسما مركبا ، أو حالاً فى مكان ، أو مخصوصا بزمان ، أو موصوفا بالْكِبَرِ أو بالصِّغَرِ ، أو يكون

له شبيه (وفى الصفات) بأن تكون حياته كحياة الحوادث ، وعلمه كعلمهم وهكذا (وفى الأفعال) بألا يكون مؤثرا فى شىء، وإنما له مجرد الكسب ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . فهو لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود ، ولا يحده مقدار، ولا تحويه أقطار ، لقوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ) .

(ومن المستحيل) فى حقه تعالى احتياجه لموجد أو ذات يقوم بها . والتعدد فى (الذات) بأن يكون مركبا يقبل الانقسام أو يكون هناك ذات كذاته (وفى الصفات) بأن يكون له صفتان من جنس واحد كقدرتين وعلمين ، أو يكون لغيره صفة كصفته .

(وفى الأفعال) بأن يكون لغيره تأثير فى شىء من الأشياء بطبعه أو بقوة مودعة فيه . فليست النار محرقة بطبعها ولا بقوة خلقت فيها ، وإنما الخالق للإحراق هو الله تعالى عند خلقه النار . ولو شاء خلق النار دون الإحراق لكان ، كما حصل لخليله سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وليس الماء مرويا بطبعه ولا بقوة خلقت فيه وإنما الخالق للرى الله تعالى عند شرب الماء . وليس الملبوس ساترا وواقيا البرد أو الحر بنفسه ولا بقوة خلقت فيه . بل الخالق لما ذُكِر هو الله تعالى عند لبس الثياب . فمن يعتقد تأثير

شيء من الأسباب فى مسببه بطبعه فهو كافر أو بقوة خلقها الله فيه فهو فاسق . ومن اعتقد عدم تأثيرها ، وأن الله هو المؤثر ولكن يستحيل خلق السبب بدون مسببه أو عكسه فهو مؤمن يخشى عليه إنكار معجزات الأنبياء فيكفر ، أو إنكار كرامات الأولياء فيفسق .

والاعتقاد الصحيح : اعتقاد أن المؤثر فى السبب والمسبب هو الله تعالى مع إمكان تخلف أحدهما عن الآخر خرقا للعادة .

(ومن المستحيل) فى حقه تعالى : الموت وما فى معناه كالنوم ، والإغماء . قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾ . (ومنه) الجهل وما فى معناه كالظن، والشك ، والوهم ، والغفلة، والذهول ، والنسيان . (ومنه) وجود شيء من الحوادث بلا إرادته تعالى بأن يكون بطريق الطبع أو العلة . فلا يقع فى الملك والملكوت قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر إلا بقضائه وقَدَره .

(ومنه) العجز عن ممكن ما ، والصمم وما فى معناه كسمعه الجهر دون السر ، وكاختصاصه بالأصوات دون الذوات وسائر الموجودات (ومنه) العمى وما فى معناه كالعشا ـ بفتحتين

مقصورا ـ : وهو عدم الإبصار ليلا ـ والجهر ـ بفتحتين : وهو عدم الإبصار نهارا . (ومنه) البكم : وهو الخرس وما فى معناه كالفهاهة والعى والسكوت وكون كلامه تعالى بحروف وأصوات.

هذا ما دلت عليه استحالته فى حق الله الأدلة التفصيلية ، وهى أدلة الواجب التفصيلى ، ويجب على كل مكلف أن يعتقد بعد ذلك أن الله تعالى منزه عن كل نقص ، كما أنه متصف بكل كمال .

* * وقد قال صاحب (الخريدة) مشيرا إلى المستحيل فى حقه تعالى ودليل الاستحالة بقوله :

ويستحيل ضد ما تقدما

من الصفات الشامخات فاعْلَمَا

لأنه لو لم يكن موصوفاَ

بهـا لكان بالسِّوَى معروفاَ

وكـل مـن قـام بـه ســـواهـا

فهو الذى فى الفقر قـد تنـــاهى

والـواحد المعبـــود لا يفـتـقـر

لغيـــره جـــل الغـنى المقتـــدر

ومعنى هذه الأبيات [1] هو :

(ويستحيل) عليه تعالى (ضد ما تقدم) المراد بالضد هنا الضد اللغوى، وهو مطلق المنافى سواء كان وجوديا أو عدميا ، فكأنه قال : ويستحيل عليه تعالى كل ما ينافى ما تقدم (من الصفات) أى الصفات النفسية والسلبية والمعانى (الشامخات) المرتفعات المنزهات عن الحدوث ولوازمه (لأنه لو لم يكن موصوفا) إلى آخر الأبيات إشارة إلى دليل استحالة أضداد الصفات الواجبة عليه تعالى ، وبيانه : لو لم يكن الله تعالى متصفا بالصفات الواجبة لاتصف بأضدادها ، ولو اتصف بأضدادها لكان محتاجا ، كيف والواحد المعبود لا يفتقر لغيره ، جل الغنى المقتدر على كل شىء وكل

(١) كما جاء فى كتاب « تهذيب شرح الخريدة » ص ٣٦ .

obeikandl.com

شىء إليه فقير .

* * كـمـا جـاء أيضـا فى (الدين الخـالص) جـ ١ تحت عنوان:

الجائز فى حق الله تعالى

ما نصه الذى نريد كذلك أن نفهمه ، وهو أنه :

يجوز فى حقه تعالى فعل كل ممكن أو تركه ، فهو متفضل بالخلق والاختراع والتكليف والإنعام والإحسان لا عن وجوب ولا إيجاب. فلا يجب عليه شىء مما ذكر . ولا يستحيل عليه تعالى فعل ما يضر عباده ، بل يجوز أن يفعله بهم بطريق العدل ؛ إذ للمالك أن يتصرف فى ملكه بما شاء . فهو الخالق للإيمان والطاعة والسعادة والعافية ، وسائر النعم فضلا منه وإحسانا . وهو الخالق للكفر والمعاصى والشقاوة والأمراض والفقر ونحو ذلك عدلا منه فى مملوكه ، قال تعالى : ﴿ ..وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [1] وقال : ﴿ وربك يخلق ما يشاء

---

(١) البقرة : من الآية ١٠٥ .